الفصـــل الثالث

هديه في الحل والعفو ﷺ

حلمه وعفوه ﷺ يتناسبان مع كمال مرتبته :

لمـــا كانت الأخلاق متكاملة ، كان كل خلق يقوى بغيره من الأخلاق لارتباط الكيان الخلقي ببعضه وشدة تماسكه ، فالعفو يحتاج إلى الرحمة وكلما اتسعت الـــرحمة اتسع العفو بقدرها ، وإن مرتبته صلوات الله وسلامه عليه : مرتبة الرسالة الخاتمة العامة الشاملة ؛ تعطي أنه أرحم الخلق بعباد الله عز وجل وقد بين التنزيل الحكيم علو هذه المرتبة التي تتفجر من قوله تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمـــةً للعالميـــن** ﴾. يقول الحافظ ابن أبي جمرة [1]: " وهذا لفظ عام فلا يقصـــر علـــى جهة واحدة ولا معنى واحد بل يبقى على عمومه لأن ذلك هو اللائق بجلاله سبحانه". وإذا كان صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين فقد وضـــع الحـــق عـــز وجـــل فيه من الرحمة ما يتناسب مع هذه المرتبة التي لا تجوز إلا له ولا تصدر إلا عنه ﷺ . وقد عبر الإمام شمس الدين محمد بن أبي الحسن البكري عن هذا المعنى بقوله :

مـــا أرسل الرحمن أو يرسل ... مـــن رحمة تصعد أو تنزل

فـــي ملكـــوت الله أو ملكـــه ... من كل ما يختص أو يشمل

إلا وطـــه المصـــطفى عبده ... نبـــيه مخـــتاره المرســـل

واســـطة فـــيها وأصـــل لها ... يفهـــم هـــذا كـــل من يعقل

---

[1] بهجة النفوس : جـــ ٤ ص ٢٥٥ .

وحسبك من كمال رحمته وعفوه صلوات الله وسلامه عليه ، حرصه على هداية من لم يأل جهداً في إذايته بل ومحاولة الفتك به وبأصحابه رضوان الله تعالى عليهم . وكان المنافقون يؤذونه ﷺ إذا غاب ، ويتملقونه إذا حضر ، وهو يعرف هذا المعرفة التامة ومع هذا فقد كانوا كلما غالوا في نفاقهم يفتح لهم بابا من أبواب الرحمة لعلهم يرجعون .

ومع أن أصحابه رضوان الله تعالى عليهم كانوا في الحلم مراتب ، ومنهم من بلغ المرتبة التي لا يبلغها أشد الناس حلما بعد النبيين والمرسلين ، إلا أن الإساءة البالغة والأذى الشديد المستمر دعاهم إلى أن يقولوا لرسول الله ﷺ " لو دعوت عليهم ؟" فيقول صلوات الله وسلامه عليه " إني لم أُبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة " فينبههم ﷺ إلى الاهتداء بهديه وطلب الهداية للناس مهما أتوا من صنوف الإيذاء . ولم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم ، بل إنه يعفو ويصفح عما بدر منهم ويعتذر عنهم بجهلهم ويدعو لهم بالهداية ويقول " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " وما زال يعالجهم ﷺ حتى كان منهم الصديقون والأبرار الذين بذلوا النفس والنفيس لهداية الخلق إلى الله عز وجل .

وكمال العفو أيضا يتسع باتساع العلم والمعرفة بالله عز وجل ، فما بالك إذن بعفو من أرسله الله تعالى ليبين للناس جميعا ما اشتمل عليه التنزيل من علوم.

حاول فلاسفة الأخلاق وعلماء النفس والتربية وضع قواعد للسلوك الإنساني فمنهم من طلبها في الغرائز ومنهم من طلبها في غريزة حب الذات أو الغريزة الجنسية ، ومنهم من رد السلوك إلى المنفعة ، ومنهم من رده إلى الضمير ومنهم من رده إلى المادة .. وضل هؤلاء جميعا ولم يصلوا إلا إلى قواعد مشوهة تصلح لأن تكون أساسا للشر نفسه . وتابعهم بعض علماء العرب في آرائهم تقليداً لكل ما هو أجنبي ، وفاتهم بذلك دراسة الخلق المحمدي وهو

الأســـاس العلمـــي الوحيد لجميع مكارم الأخلاق ، كما قصروا في أداء هذه الأمانة للعالم وهم أولى الناس بتبليغها بدلا من التقصير فيها .

إن مكـــارم الأخـــلاق تنبع من حب الإنسان لله عزل وجل ولا يذوق الإنسان الحب الصحيح لله تعالى إلا إذا عرفه المعرفة اللائقة به عز وجل. ولا يعرف الإنسان الخالق سبحانه إلا إذا آمن برسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ومـــن هذا الحب الصادق ينبع حب الإنسان للإنسان . هذا هو الحب الأساسي الثابـــت الذي لا يزول ، وهذا هو الحب الذي نبهنا إليه رسول الله ﷺ وأمرنا بـــه، وهـــذا هو الحب الذي يجعل الإنسان يستعذب كل سلوك يقتضيه الخلق الكريم . وإذا كان كمال العفو يتسع على قدر حب الإنسان لخالقه تعالى ، فلك أن تتأمل في كمال عفوه صلوات الله وسلامه عليه.

أشد الناس بلاء الأنبيـــاء :

إن كمـــال العفو يحتاج إلى الصبر على الأذى ، فهو يتسع بقدر طاقة الإنسان علـــى تحمـــل صنوف الأذية . ويجب أن تلاحظ أن الإنسان كلما ازداد كماله كلمـــا اشـــتد ابتلاؤه ، إذ أنه يتألم من أمور لا يدركها العادي من الناس وهذه مسألة نشاهدها ونلمسها في معاملاتنا اليومية : فمن الناس من لا يؤلمه الكلام مهمـــا كـــان نابيا أو جارحا ، ومنهم من تؤلمه الكلمة أياما بل مدى الحياة ، ومنهم من يبحث عن كل الطرق الممكنة لقتل الوقت الزائد عن عمله ، ومنهم من يتألم أشد الألم إذا ضاعت منه ساعة دون ثمرة ، مما يضطره إلى تحديد مقابلته في وقت معين ولفترة معينة . ومنهم من يتلذذ بمزاحمة غيره على أي شـــأن مـــن الشـــئون ، التي تحتاج إلى هذا التزاحم ومنهم من يتألم من هذه المزاحمة ولو كانت لحق من حقوقه الخ ...

ومـــن هنا يمكننا أن نتصور مقدار ما يتحمله النبيون والمرسلون من صنوف الإيـــذاء التـــي لا يمكن لغيرهم أن يتحملها ، وقد جاء في حديث رواه الإمام الـــبخاري ، أن (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) فهم مع كمالهم لا يـــنفك أذى الـــناس عـــنهم فـــي وقتهم وفي أنفسهم وفي أموالهم وأهليهم وأصحابهم وأتباعهم .

ولا يسع من يتأمل هذا السلوك الاستفزازي القاسي من جانب المناوئين للدعوة ويقـــابل ذلـــك بقـــوة احتماله ﷺ لجميع المكاره لا يسعه إلا التسليم بالإعجاز الخلقي المحمدي .

وقـــد تواتـــر فـــي كتـــب الحديث والفقه والسيرة والتاريخ والتراجم هذا عدا التواتر المعنوي ، أنه صلوات الله وسلامه عليه كان لا يغضب إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى . فكان ﷺ يصل من قطعه ويعطي من حرمه و يعفو عمن ظلمـــه ، وكـــان صدره يتسع لكل صنوف الأذى : تقول الصديقة الكبرى أم المؤمنيـــن الســـيدة عائشة رضي الله تعالى عنها (ما رأيت رسول الله ﷺ منتصـــرا مـــن مظلمة ظلمها قط مالم تكن حرمة من محارم الله تعالى ، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله) وتقول فيما رواه الحاكم (لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح. وما انتقم لنفسه من شيء إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون لله ينتقم) وعن أنس رضـــي الله تعالى عنه قال (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قـــال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته). وهؤلاء قومه لم يتركوا وسيلة من وسائل الأذى إلا وقد جربوها بل لقد تآمروا جميعا على قتله ليلة الهجرة ، فلما مكنه الله تعالى منهم قال لهم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " وكأنهم لم يرتكبوا معه ﷺ أي شيء .

مـــن ذا الذي يطيق الصبر على جميع صنوف الأذى ولا تبدر منه بادرة تدل علـــى نزوله عن مرتبة الكمال الخلقي بل لا يبدر منه سوى الصفح الجميل ؟ ومن ذا الذي يهتم بهداية الخلق إلى الله عز وجل أشد من اهتمامهم بذلك مهما بـــالغوا فـــي الإعـــراض والإســـاءة ، وهـــو لا يبغي من وراء ذلك جزاء ولا شـــكورا؟ ومن ذا الذي لا ييأس والقوم يردونه المرة بعد المرة حتى قال بعـــض رجل القبائل (ما آن لك أن تيأس منا !) من طول ما يدعوهم إلى الله ســـبحانه ؟ بـــل كـــان صـــلوات الله وسلامه عليه الله وسلامه كلما ازدادوا فـــي الفساد وتمادوا في الطغيان ، يشتد حزنه رأفة ورحمة بهم ﴿ **فلعلك باخِعٌ نفسَـــكَ علـــى آثـــارِهم إن لَّـــم يُؤْمِـــنوا بهذا الحديثِ أسَفا** ﴾ ــ سورة الكهف ــ ﴿ **فلا تَذهَب نفسُك عليهم حَسَرات** ﴾ ــ من الآية الثامنة ــ سورة فاطر .

أعدى أعداء البشر هم أعداء رسول الله ﷺ .

إن النبيـــن صـــلوات الله وسلامه عليهم يواجهون صنفا من الأعداء لا نألفه مما يضاعف بلاءهم ، ومما يدل على قوة احتمالهم ولبيان ذلك نقول :

يتفاوت الناس في الانحطاط ولو رتبناهم درجات في ذلك : لوجدنا أنه ما من درجة إلا وكان هناك ما هو أسفل منها حتى يبلغ الانحطاط أسفل سافلين وهي المرتبة الجامعة لأحط المراتب ولا تنحط مرتبة عنها .

ولـــو جلـــنا بالفكر نبحث عن العداوة وصنوفها وأسبابها ومسبباتها لوجدنا أن أخطـــر درجـــات العداوة هي عداوة هؤلاء الذين يعاندون النبيين والمرسلين صـــلوات الله وســـلامه علـــيهم ، ولو تصورنا ما تصورنا من عاهات نفسية وخلقية لوجدنا لأعداء الرسل النصيب الأوفر .

أعدى أعداء البشر هم أعداؤه ﷺ

إن عـداوة الـرجل العـادي تحتاج إلى طاقة معينة من الكراهية تتناسب مع موجههـا ، وكلما تدرج الشخص في الكمال كلما احتاج عدوه إلى طاقة أكبر تقـابل هـذا الكمال ، فإذا ما وصلنا إلى مراتب الصديقين وجدنا أن الشحنة العدائـية التـي يحملها مبغضهم تكفي لإشعال العداوة ضد مئات من الرجال العاديين ــ فالعداوة لا تتم إلا إذا وجدت هذه الكمية التي يقابل بها العدو كمال مـن يعاديه ــ فإذا انتقلنا إلى مرتبة النبوة وجدنا أن أعداء النبيين والمرسلين مـن الجـبابرة الغلاظ العتاة ، يكفي ما يحمله الواحد منهم من عداوة لتغذية الآلاف بالعداوة العادية .

وهذه العداوة من نوع غريب لا نألفه : إذ تقصر الأسباب المألوفة عن تعليلها: فالعداوة تنجم عن الظلم والعدوان وسوء الخلق والفظاظة والقسوة والاغتصاب الخ ... والأنبياء والمرسلون منزهون عن هذا كله : بل هم المثل العليا للعدالة و حسـن الخلـق والرحمة والعطف والشفقة والحب والعفو الخ .. فكل صفة فـيهم تجذب إلى حبهم والتعلق بهم ، ومن هنا يغزو الإيمان القلوب فيجذبون الناس إلى الله تعالى .

ولـم يبق إذن من مبررات لهذه العداوة سوى العداء الذاتي المستمد من الكبر والحقـد والحسـد ، وهـذا لا يبرر عداوة الإنسان للإنسان فما بالك بالنبيين والمرسلين.

ننتقل بعد ذلك إلى النقطة التالية :

إن الجـــريمة تقـــدر بشـــاعتها بقدر اتساع أثرها على المجتمع ، وقد قسمت القوانيـــن الجرائم درجات فأعلاها الجريمة العظمى وتكون ضد الوطن بأسره لأن ضررها شامل للمواطنين جميعا .

فمـــا بـــالك بجريمة يتعدى ضررها إلى الناس جميعا ! لاشك في أن مرتكبها يكون أعدى أعداء الإنسانية مطلقا .

إن الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسوله ﷺ وأرسله كافة للناس بشيرا ونذيرا ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم صراطا مستقيما وأنزل عليه القرآن العظيم المعجزة التامة الشاملة ، الباقية السرمدية ، والحجة البالغة ليبين للناس ما أنزل إليهم فضلا من الله ورحمة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عـــن بيـــنة . فما هي جريمة من يصد رسول الله ﷺ ويحاول أن يمنع تبليغ الوحي الإلهي ؟ إنها جرائم يتراكم بعضها فوق بعض تقشعر لكل واحدة منها الأبـــدان ، ولـــك أن تحكم على هذا الذي يصد الناس عن خالقهم ليغرقوا في ظلمـــات الشـــرك والوثنـــية ، هـــذا الذي يحاول تجريد الناس من الإنسانية بـــتجريدهم من معرفة خالقهم ، هذا الذي يعمل على تكبيل الناس بالقيود التي تربطهم بالعبودية لغير الله تعالى ، هذا الذي يريد أن يعيش الناس كالحيوانات بعـــيدا عن الدستور الإلهي وتعاليمه ، هذا الذي يريد أن يسجن النفس البشرية في غيابات حسب الغرائز والأهواء والأوهام ، هذا الذي يريد أن يعيش الناس حـــياة بلا هدف يأكل بعضهم بعضها ... الخ ومن هنا تدرك أن عدو رسول الله ﷺ هو أعدى أعداء الإنسانية حقاً .

١ – " لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما "

كـــان زيـــد بـــن سعنة[١] حبراً من أحبار اليهود في المدينة قد درس صفات النبوة وعرف علاماتها في رسول الله ﷺ وبقيت علامتان يريد أن يخبرهما : أن يسبق حلمه غضبه ، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما ، فكان زيد ينطلق ويخـــالط رسول الله ﷺ يريد أن يختبره ، وفي ذات يوم جاء أعرابي يشكو لرسول الله ﷺ شدة العيش في إحدى القرى وزيد يسمع .

فقال زيد لرسول الله ﷺ :

أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا ، فبايعني وأطلقت هميانى وأعطيته ثمانين ديناراً فدفعها إلى الرجل ، وقال أعجل عليهم بها وأغثهم ، فلما كان قبل المحل بيوم أو يوميـــن أو ثلاثـــة ، فخرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع ومعه أبو بكر وعمـــر في نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جذبت بـــرديه جذبة شديدة حتى سقط عن عاتقه ، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت : ألا تقضـــيني يـــا محمد ، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لمطل ولقد كان لي بمخالطتكم علم ! " .

وقد سلك زيد بتصرفه هذا أشد أنواع الاستفزاز بدون وجه من الحق .

---

(١) ويروى بالياء سعية قال ابن عبد البر هو بالنون أكثر ــ وقصة إسلامه قد أخرجها الطبراني وابـــن حـــبان والحـــاكم والبيهقي وأبو نعيم وأبو الشيخ في كتاب أخلاق النبي ﷺ ، راجع ص ٨٣ وما بعدها طبعـــة ١٩٥٩ .

فـــارتعدت فـــرائص عمر رضي الله عنه كالفلك المستدير ثم رمى ببصره ثم قـــال: أي عـــدو الله أتقـــول هذا لرسول الله ؟! وتصنع به ما أرى ! وتقول ما أسمع ! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر ويتبسم لقوله ثم قال : " لأنا وهو أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي " .

" اذهب يا عمر فاقض حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما رعته " .

وهنا سكنت نفس زيد واطمأنت حيث وجد العلامات التي كان يبحث عنها .

فذهب به عمر فقضاه دينه وزاده صواعاً من تمر . قال زيد :

أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا . فمن أنت ؟

قال : أنا زيد بن سعنه ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر .

قال : فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلته وتقول له ما قلت ؟

قلت : يا عمر ؛ إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه رســـول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه يسبق حلمه غضبه ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما .

فقـــد اختـــبرته منه ، فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيـــا .

٢ – " لا تكافـــئ بالسيئـــــة السيئة "

في الشفاء للقاضي عياض ، عن أنس رضي الله تعالى عنه ، قال :

كنـــت مع النبي ﷺ ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شـــديدة حـــتى أثـــرت حاشـــية البرد في صفحة عاتقه الشريف ﷺ . ثم قال الأعرابـــي (يا محمد أحمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فـــإنك لا تحمـــل لي من مالك ولا من مال أبيك !) فسكت النبي ﷺ ، ثم قال (المال مال الله ، وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي) .

قال : لا . فسأله ﷺ :ولـــم ؟

قال : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئـــة .

فضحك النبي ﷺ ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر.

ومن سياق القصة نلاحظ :

أن رســـول الله ﷺ كان لا يقتصر في الملبس على صنف بعينه بل كان يلبس مـــا تيســـر ممـــا هـــو أتم وأنفع وأصح للبدن وأنسب لحرارة الجو وكان في اســـتطاعته ﷺ أن يقتصر على أفخر الملابس وأنفسها وأغلاها ، ولو صغنا الجواهـــر له رداء لكـــان ذلك ليس بشيء بالنسبة لمقامه ﷺ ، ولكنه لم يقبل صـــلوات الله وسلامه عليه أن يتميز في شئون الدنيا اللازمة للبشر. والمغالاة فـــي الملـــبس لا تكـــون إلا ممن يقصد التفاخر والتعاظم ، ولهذا خطره من النواحـــي الاجتماعـــية والاقتصـــادية والسياســـية ، فلذلـــك يؤدي إلى افتتان كـــل بالآخـــر ، والتـــنافس فيما يضر ولا ينفع ، ويؤدي إلى تكليف الإنسان

ما لا يطيق ليجاري الغير ، وإلى الإقبال على التوافه ، والإسراف في الشئون المظهـــرية ممـــا يهلك الإنسان ويدمر الاقتصاد . كما يؤدي إلى التعالي على الغير واحتقارهم .

وفـــي هذه القصة ، وفي جميع ما ورد في السيرة العطرة نلاحظ عدم وجود حجَّـــاب يحجبون الناس عن الاجتماع برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بل كان صاحب الحاجة يرفعها إليه مباشرة فيقضيها له ﷺ أو يأمر بقضائها ، وفـــي اســـتطاعتك أن تقـــارن هذا بما يقيمه الحكام من الحجاب بينهم وبين المحكومين مما يورث الذل في النفوس ، ويؤدي إلى الجهل بحقيقة ما يجري مـــن الأمور ، ويجعل كل رئيس ينفرد بدائرة عمله لا يخشى رقيبا لثقته بأن أحـــد لـــن يســـتطيع أن يصل إلى رئيسه ، وقد جر هذا الداء المستفحل شر المصـــائب والـــبلايا على الشعوب وأشدها اليأس من قضاء المصالح وتفشي الظلـــم ، والرشـــوة والمحســـوبية والوساطة واضطراب أمور الدولة ، حتى أصـــبحت الوظـــائف مناصب تشريف لا تكليف ، والحكم غنم لا غرم ولما تنبهـــت الشعوب لهذا الداء ، هبت تحاول تحطيم الحواجز بين الأداة الحاكمة والمحكوميـــن وتكـــافح في سبيل إقامة النظام العادل الذي يكفل لها حقوقها ، وهـــو كفاح لا يزال مستمرا . ولا يقال إن كثرة الحجاب قد استلزمتها كثرة المشـــاغل لتوفير وقت الحكام لما هو أهم ، إذ لا نعلم مخلوقا يفوق المرسلين صـــلوات الله وسلامه عليهم في خطورة تبعاتهم ، وعظم واجباتهم وتشعبها ، وإن أخطر المسئوليات لا تقاس بجانب الأمانة التي كلفوا بأدائها والقيام بها ، والوحـــي الـــذي أمروا بتبليغه ومع ذلك لا يردون طارقا ولا يحجبون عنهم مخلوقا ، وإذا كان هذا واضحا في شان المرسلين ، فهو أشد ووضحا بالنسبة لإمامهم وخاتمهم ﷺ الذي حدد الصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكه العالمين

والـــذي لا يكمل وجودهم إلا باتباعه ، وإن واجبا واحداً من واجباته ﷺ لينوء الـــناس جمـــيعا بحمله لسبب بسيط وهو أنه لسان الوحي القرآني الذي يقرر مصير الموجودات .

وتـــأمّل في ثقة الأعراب في مكارم أخلاقه ﷺ إلى درجة تجعل الواحد منهم يذهب وهو مطمئن واثق بأنه سيرجع وقد قضيت حاجته وأنه مهما بدأ منه من خطأ فسيكون معفوا عنه مع تنبيهه إليه .

وتصور حالتك لو وجدت أن رجلا ليس له عندك شيء ثم جاء وفعل معك هذا وســـط جمع من المسئولين . ثم تصور أن رجلا من العامة ذهب إلى رئيس دولـــة من الدول في مجلسه فأخذ بمجامع ملابسه وطلب منه حاجته فما الذي يحدث ؟ إن وصوله إلى رئيس الدولة في مجلسه محال من المحالات ، وعلى فرض حدوثه فإنه سيتعرض لأشد العقوبات لجرأته ووقاحته ، فما بالك حين يفعـــل هذا مع أكمل العالمين على الإطلاق ، فما الذي حدث ؟ الذي حدث أنه صلوات الله وسلامه عليه عفا عنه وأمر له بقضاء حاجته .

وقد تبسم راضيا على رد الأعرابي ليرق من لم يصل من الحاضرين إلى هذه المرتبة من العفو إليها .

٣- قدمت على أسيري عندكم !

جلس صفوان بن أمية بن خلف الجمحي وابن عمه عمير بن وهب بن خلف في الحجر من البيت الحرام وقد أُثقلت رأسيهما ذكريات بدر حيث لقي رءوس الكفر مصارعهم ، وفقد صفوان أباه وأخاه عليا ، وعمير قد أسر ابنه وهب وهو لا يفكر إلا في فكاكه ، وهناك في هذا المكان المقدس وضعا شر خطة يمكن أن ضعها إنسان .

وهكذا نجد أن الشر لا يأتي إلا بشر مثله أو ما هو أمعن في الشر منه ، فقريش إذ خرجت تختال إلى بدر إنما خرجت لتحارب الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فدارت عليها الدائرة ولم تحصد سوى الخزي والهزيمة ، وبدلا من أن يفكر زعماء قريش في موقفهم من المسلمين تفكيرا سليما ، إذا بهم لا يفكرون إلا في الانتقام والغزو ، ولو عمد الإنسان إلى قليل من الروية والتدبر لعرف الحق ، ولو درب نفسه على الخضوع للحق أينما كان لانقاد له ، و لحافظ على شرفه وكرامته كإنسان ، ولو فعل البشر هذا لقل الظلم وانتشرت العدالة وأمن كل إنسان بأس أخيه وشره . ولكن هيهات أن يفعل إنسان هذا مالم يكمل فيه الشرط الأساسي الوحيد ألا وهو الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فهنا فقط تطمئن النفس إلى الحق فقط ، ولا ينشرح الصدر إلى لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِمُوك فيما شَجَرَ بينَهمْ ثم لا يجدُوا في أنفسِهِمْ حَرَجاً مما قضيْتَ ويسلِموا تسليما** ﴾ ــ ٦٥ سورة النساء ــ وهنا فقط يكمل الإيمان إذ يكون هوى الإنسان تابعا لما جاء من عند الله تعالى " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " الحديث .

فمـــن الحتم المقضي أن الإنسان إذا جانب صراط الله العزيز الحميد أن يتبع الســـبل فتفرق به عن سبيل الله تعالى حتى يدركه الأجل موزعا بين الطرق التي وضعها لنفسه والمعايير التي حكمها في حياته ، " قتل الإنسان ما أكفره"! يـــترك السبيل الواضح والحجة البيضاء التي تفضي إلى كل ما فيه سعادته ، ويضع لنفسه سبلا لا تنتهي به إلى الهم والحزن والشر والضلال ، يترك دين الله تعـــالى لـــيدخل في دين من صنعه ! يريد أن يفر من الله تعالى ليسعد في أحضان الشياطين . فأين العقل أيها الناس ! وإلى أين المفر ؟

اتفق صفوان مع ابن عمه على اغتيال رسول الله ﷺ بشرط أن يقضي صفوان ديـــون عمير وأن يتولى شأن أولاده من بعده . وطلب عمير من صفوان أن يكـــتم ما دار بينهما لئلا يفشو الخبر ويصل إلى المدينة فيكون في ذلك هلاكه قبل أن يفعل شيئا ، وكان أعداء المسلمين يخشون ما تعودوه من شدة إطلاع رسول الله ﷺ على حركاتهم و سكناتهم إذا راموا شيئاً بالمسلمين مهما بعدت الشقة وتستروا في التدبير .

ولم يكن صفوان لينتظر غزو المسلمين وكانت قريش تستعد له ، ولم تكن هذه المؤامـــرة بغريـــبة عـــن مـــثل صفوان ، وكان أبوه يعذب المستضعفين من المســـلمين ، كمـــا كان عمه يعد فرسه "العوذ" ويعلفه [1] فرقا كل يوم وذلك ليستعين به على قتل رسول الله ﷺ .

وأعد صفوان سيفا وأمر بصقله وسقاه سما ناقعا وأعطاه لعمير ، ورحل هذا لمهمته . وصار صفوان يتفقد الوافدين من المدينة في غياب عمير ويسألهم " هـــل مـــن حـــدث وقع " فيجيبونه بالنفي ، وهو في هذه الأثناء يقول لقريش "ابشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر" .

---

[1] الفرق : مكيال يسع ستة عشر منا وقيل اثني عشر رطلا .

وصـــل عمير المدينة فنزل [1] بباب المسجد وعقل راحلته وأخذ السيف فعمد إلى رسول الله ﷺ فدخل هو وعمر بن الخطاب ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : "تأخر" .

ثم قال : " ما أقدمك يا عمير " ؟

قال : " قدمت على أسيري عندكـــم " .

قال ﷺ " أصدقني . ما أقدمك " ؟ .

قال : " ما قدمت إلا في أسيري " .

قال ﷺ : " ماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر" ؟

ففزع عمير وقال : " ماذا شرطت له ؟ " .

قال ﷺ : " تحملت له بقتلي على أن يعول بيتك . والله حائل بينك وبين ذلك ".

قال عمير " أشهد إنك رسول الله ، إن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجـــر لـــم يطلـــع علـــيه أحد غيري وغيره ، فأخبرك الله به ، آمنت بالله ورسوله".

كـــان رسول الله ﷺ يعلم ما يدور في نفس عمير وماذا يبغي منه ، كما كان يـــرى حقيقة عمير الإنسان ويشهد الحجاب الذي يحول دون نفوذ الإيمان بالله تعـــالى إلـــى قلبه ، ولو زال الحجاب لآمن عمير ، فشرع رسول الله ﷺ في تحقيق المعجزة بإزالة هذا الحجاب .

---

[1] من حديث أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن موسى بن عقبة وعن عروة بن الزبير .

من الناس من يرى أن المعجزات لا تكون إلا في قلب السنن الجارية والإتيان بالخوارق الحسية ، وفاتهم أن أسمى المعجزات هي تصحيح حقيقة الإنسان : هـــي تحويل مشرك أو كافر إلى مؤمن أو صدِّيق لا يعرف إلا الله عز وجل وما جاءت به رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

وقـــد تكـــون الـــنفس مستعدة قابلة للإيمان ولكن يحول بينها وبينه ستور من الظـــلام تقـــل أو تشتد كثافة ؛ وكل غشاوة منها تحتاج إلى علاج معين حتى تـــرتفع ، وهـــنا موطـــن الإعجاز : معرفة الطريق الموصل لإزالة الموانع الحاجبة عن الإيمان .

كف رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب عن عمير ثم بدأ في التحقيق معه ، فسأله أولا ليطمئـــن قلبه ، وأخذ عمير في اللف والدوران ، ثم فاجأه مرة واحدة بما دار بيـــنه وبين صفوان في مكة ولمفاجأة الشخص بالحقيقة المكتومة صدمة تجعله ينهار ويعترف .

وكانت مفاجأة عمير بمثابة النور الذي بدد الغشاوة عن بصيرته ، وجلا عين قلـــبه ورفع الظلمات التي تحول بينه وبين استعداده للإيمان : إذ علم أن هذا الذي يكشف خبيئة نفسه أشد من كشف ضوء الشمس للكائنات ، وهذه الطلعة المشرقة الهادئة التي تناقشه ، وهذا الذي يعلم ما يدور بخلده ومع ذلك لا تبدر منه أية بادرة للانتقام منه : وكان له الحق كل الحق أن يصنع به ما كان هو يريد أن يصنع به ، هذا الذي يُنَحِّي عمر بالرغم من علمه بمقصده ويقول له " الله حـــائل بيـــنك وبيـــن ذلك " هذا هو رسول الله الذي تهتدي بهداه القلوب وتستنير به البصائر .

ومن الدلالات التي يمكنك أن تستنبطها من هذه القصة وأمثالها :

١- كمال هيبته صلوات الله وسلامه عليه فلا نجد أحدا أراد اغتياله إلا وقد شلت قواه .

٢- كمال شجاعته صلوات الله وسلامه : ولك أن تتصور حالة الإنسان مهما بلغت شجاعته إذا ما هاجمه إنسان مستعد بالسلاح يريد قتله وهو على غير استعداد لمواجهته .

٣- حرصه صلوات الله وسلامه عليه على هداية البشر : يتمثل هذا في حرصه على هداية من يقصد اغتياله .

٤- كمال عفوه صلوات الله وسلامه عليه عمن يريد قتله .

٥- إعجازه الزمني صلوات الله وسلامه عليه في علاج النفوس وتحويلها من نفوس تمتلئ بالحقد والشر إلى نفوس مؤمنة تمتلئ إنسانية ويتفجر منها الخير كل ذلك في لحظات .

٦- إعجازه صلوات الله وسلامه عليه في اجتثاث أصول الإجرام من النفوس البشرية ولا يكون ذلك إلا مع كمال العلم بطبائع النفوس وطرق علاجها ومعرفة دواء كل داء . ومع تقدم نطاق الأبحاث النفسية ، واتساع نطاق الدراسات التربوية والاجتماعية الهادفة إلى طبع النفوس البشرية على الخير فإننا لم نصل حتى الآن إلى أية نتائج حاسمة ، ولو درس العلماء أدواء النفوس وطرق علاجها كما وضحتها الشريعة المحمدية لوفروا على أنفسهم مجهودا مضنيا شاقا ، ولقدموا للإنسانية أجل الخدمات التي يمكن أن تقدم لها؛ كي يعالج الناس مشاكلهم بالحسنى لا بسفك الدماء وتدمير كل عامر .

وبعد :

فـــإن لقـــاءاً واحداً مع ذوي النفوس العالية ليترك في الإنسان طاقة من الخير تلازمـــه مدى الحياة ، وهؤلاء هم الذين يتمكن منهم الإيمان بالله تعالى تمكناً جعل أرواحهم إكسيرا إذا أُلْقِيَ على النفوس القابلة للكمال زالت المواقع التي تحـــول دون ظهـــور استعدادتهم ، وأشرقت جوانبهم واهتزَّت نفوسهم وربت بالخـــير من كل جانب . فما بالك بلقاء من أشرقت من جوانبه أنوار الوحي ، وتدفقـــت منه أسرار التنزيل ؟ إن لحظة واحدة من لحظات لقائه صلوات الله وســـلامه عليه لا تقوم بلقاء الخلق جميعا مدى الحياة ، لأن ما تكتسبه الروح فـــي تلك اللحظة لا يمكن أن تكتسبه من مخلوق آخر ، وإذا علمنا هذا عرفنا لمـــاذا بلـــغ أصـــحابه صلوات الله وسلامه عليهم درجة تُقْطَعُ الأعناق دون التسامي إليها .

٤- "ما من خلق الله أحب إلي منه"

روى ابن هشام في السيرة :

أن فضـــالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عـــام الفـــتح ، فما دنا منه، قال رسول الله ﷺ أفضاله ؟ قال : نعم . فضالة يا رسول الله . قال ﷺ : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء كنت أذكر الله !

فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده على صدره . فسكن قلبه قـــال فضـــالة : والله مـــا رفـــع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب منه .

قال : فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها . فقالت : هلم إلى الحديث .

فقلت : لا . وانبعث يقول :

قالـــت هلـــم إلـــى الحديـــث فقلت لا ... يـــــأبى علـــــيك الله والإســـــلام

لـــو مـــا رأيـــت محمـــداً وقبـــيله ... بالفـــتح يـــوم تكســـر الأصـــنام

رأيـــت ديـــن الله أضـــحى بَيِّـــناً ... والشـــرك يغشـــى وجهَـــهُ الإظـــلامُ

٥- " يريد أن يدرك ثأر قريش كلها "

كانت قبائل هوازن وثقيف تستعد للقضاء على القوة الإسلامية ولما تم فتح مكة بادرت بالخروج في زحف جماعي ، وخرج المسلمون للقائهم في السادس من شوال من سنة ثمان أي بعد فتح مكة بستة عشر يوما ، وفي وادي حنين فاجأت القبائل المسلمين على غِرَّة ففرّوا وثبت رسول الله ﷺ ونادى مناديه يهيب بالأنصار ليعودوا إلى القتال ، وما سمع الأنصار أمر رسول الله ﷺ حتى عادوا سراعا والتحموا مع القبائل وكسروهم كسرة فاصلة .

وكان ممن خرج مع المسلمين نفر لما يدخل الإيمان في قلوبهم من متطوعي مكة وغيرهم ومن بينهم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار.

وكان بنو "عبد الدار" هم أصحاب اللواء يوم أحد وقد قتل منهم والدُ شيبة : عثمان بن أبي طلحة ، وعمه طلحة بن أبي طلحة ونفر من أبناء عمه : مسافع والجلاس وكلاب والحارث أبناء طلحة . فهاج الثأر على شيبة وأخذ يترقب الفرص ليصيب رسول الله ﷺ : قال[1] شيبة : قلت أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها ! " وكان يقول " لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمد ما اتبعته أبدا " .

قال شيبة " فكنت مترصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة ، ووجد الفرصة سانحة حين تفرق المسلمون عن رسول الله ﷺ .

---

(١) راجع قصة إسلامه : في البغوي ، والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر من طريق ابن المبارك عن أبي الهذلي عن عكرمة ، وابن سعد وابن عساكر عن عبدالملك بن عبيد وغيره .

قـــال " فأصْـــلَتُ الســـيف ودنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي حتى كدت أســـوره ، فرفع لي شواظٌ من نار كالبرق كاد يمحشني ، فوضعت يدي على بصـــري خوفا عليه " وفي رواية ابن إسحاق قال " فأدرت برسول الله لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك " قال : فناداني رسول الله ﷺ " يا شيبة . أدن مني . فدنوت ــ فمسح صدري ثم قال اللهم أعذه من الشيطان.

قـــال : فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي . وأذهب الله مـــا كان بي . ثم قال ﷺ : أدن فقاتل قال : فتقدمت أمامه أضرب بسيفي الله يعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف " .

وأمـــر رسول الله ﷺ عمه العباس أن يدعو الأنصار والمهاجرين وهم دعامة الجـــيش الإسلامي للعودة والثبات قال شيبة " فما شبهت عطفة الأنصار على رســـول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها ، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه فـــي حـــرجة ، فرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار " وانتصر المسلمون .

ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره فدخل خباءه . قال شيبة : فدخلت عليه .

فقـــال " يا شيب الذي أراد الله بك خير مما أردت بنفسك " ثم حَدَّثني بكل ما أضمرتُ في نفسي مما لم أذكره لأحد قط ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ثم قلت : استغفر لي يا رسول الله . قال ﷺ : غفر الله لك".

خرج مع المسلمين إلى حنين حديثو العهد بالإسلام وكان من بينهم المتظاهرين والمنافقين بل من يتربص الدوائر بالمسلمين وكان هؤلاء هم سبب الاضطراب الذي وقع في بداية المعركة .

وكانت فرصة ساعة أراد أن ينتهزها شيبة الذي أعماه التفكير في الانتقام عن التبصر في حقيقة الأمر ، وكان عليه أن يسأل نفسه ــ حين جال بنفسه عاطر الــثأر ــ لمــاذا خرجت قريش ولماذا خرج معها بنو عبدالدار إلى أحد ؟ ألم يخرجوا بقصد استئصال شأفة المسلمين كما صرح بذلك زعماؤهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك أينكر على الناس عامة لا على المسلمين خاصة حتى الدفاع عن أنفســهم ؟ ولــندع هذه المسلمات البديهية . ولنتسائل إذا حق له أن ينتقم كما سولت له نفسه ، ألم يفكر أن من حق المسلمين أيضا أن ينتقموا ؟ ولهم الحق كــل الحــق بعد أن حاول المشركون أن يغزوهم في عقر دارهم ، وبعد أن استشهد كثير من أبطالهم وعلى رأسهم سيد الشهداء الحمزة رضي الله تعالى عــنهم ــ وإذا كــان الانــتقام على قدر القيمة المعنوية والأدبية ، فإن ملء الأرض من مشركي قريش لا يقوّم بشهيد واحد من المسلمين .

وهــاهو شيبة يشرع في جريمة أشد هولا : ألم يخرج مع المسلمين ويتظاهر بمظاهــرتهم علــى عدوهم ؟ فما باله أثناء القتال وفي اللحظات الحاسمة في المعركة يريد أن يغتال رسول الله ﷺ . وما جزاء من يخون في ميدان القتال؟ ومــا جــزاء الاغتــيال ؟ وما جزاء من يحاول ارتكابه في الميدان ، ويوجه الضربة لا إلى قائد الجيش وناهيك بها من جرائم متعددة ، بل يريد اغتيال من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين . لو قطع شيبة إربا وهو على هذه الحالة لكان هذا أقل جزاء يُجْزَى به .

أقــبل شــيبة يقصد رسول الله ﷺ وهو يصرح لنا بأنه كان يمتلئ عداوة ، قد اســتولت عليه الرغبة في التشفي ، ولما وقع عليه بصر رسول الله ﷺ : إذا بهــذه الرغبة تتلاشى وإذا به يؤمر فيطيع ، ويدنو من رسول الله ﷺ فيمسح صدره فيمسح من نفسه كل دعوة للشر وتنطلق روحه في معارج الإيمان بعد

أن تغـذت بـالأنوار المحمديـة فيقول (فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي ... ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيا لأوقعت به السـيف " يؤكـد شيبة بعد إيمانه أن شهوة الثأر قد حل محلها حب الله تعالى ورسـوله ﷺ . ولمـا انـتهى القتال كان عظم الجرم الذي كاد أن يقدم عليه يلاحقـه ويخشى أن يلازمه بعد إسلامه فذهب إلى رسول الله ﷺ ليكون على بيـنة مـن أمره " فحدثه ﷺ بما أضمره في نفسه تطمينا له وتثبيتا ودعا له بالمغفرة فزال من نفسه كل أثر قد علق بها " .

٦- " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن "

ولـد أبـو سفيان قبل البعثة بخمسين سنة ، وأبوه حرب بن أمية الذي تحمل الدمـاء فـي حرب الفجار الثاني بين قريش وهوازن ، وفي حرب الفجار[١] الرابع قاد القرشيين و الكنانيين ضد هوازن وكان النصر حليفه ، وقد صاهر حـرب بيـت معتب من أشهر بيوتات ثقيف ، وكان له من زوجته الثقفية[٢] حمالة الحطب أم جميل وكانت هي وزوجها أبو لهب من الغلاة في اضطهاد المسلمين وإيذائهم .

وأم أبـي سفيان هي صفية بنت حزن الهلالية وهي عمة كل من أم المؤمنين السـيدة مـيمونة بنت الحارث بن حزن وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوجة العباس رضي الله تعالى عنهم .

وتـزوج أبو سفيان نسوة من ذوات الشرف منهن من البيت الأموي : صفية بنت أبي العاص بن أمية عمة عثمان بن عفان وولدت له حنظلة ورملة ــ أم حبيبة ــ والثانية أم قتال بنت أبي عمرو بن أمية ،عمة[٣] عقبة بن أبي معيط، وقد ولدت له عمرا . وتزوج من البيت العبشمي : هند بنت عتبة بن ربيعة بن

---

(١) الذي أشعلها : أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث قافلة كل عام إلى سوق عكاظ في جـوار رجل من أشراف العرب ، حيث تباع هناك ويشتري بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه. وتوجهت قافلته في خفارة عروة الرحال بن عتبة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة مـن بطـون هوازن ، فوثب عليه البراض بن قيس الكناني فقتله ، وأتي الخبر قريشا بعكاظ فارتحلوا قبل أن تعلم هوازن ، ولما علم هؤلاء اتبعوهم ودارت الحرب بين قريش وكنانة من جهة وبين هوازن من جهـة .

(٢) فاختة بنت عامر بن معتب الثقفي .

(٣) ذكـر ابـن اسحاق أنها أخت عقبة ، وتعقبه ابن هشام فذكر أنها عمته ، وهذا ما رواه أيضا المصعب الزبيري في كتابه نسب قريش .

عبد شمس ، وله منها معاوية وعتبة . وكانت هند هذه أبعدهن أثراً في حياته ، لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت من الأسباب الهامة التي أخرت إسلامه .

وكان لأبي سفيان من الذكور : معاوية وعتبة ويزيد وعنبسة ومحمد وعمرو وحنظلة والأخير قتل يوم بدر كافرا . وله من الإناث : صخرة ، وهند ، وجويرية ، وأميمة وقد تزوجها حويطب بن عبدالعزى ، ثم صفوان بن أمية الجمحي ، وأم الحكم وقد تزوجها عبدالله بن عثمان الثقفي . وآمنة وقد تزوجها عروة بن مسعود بن معتب الثقفي ، وميمونة وكانت عند أبي مرة بن معتب الثقفي . وله من السابقات المؤمنات السيدة رملة ــ أم حبيبة ــ وقد تزوجها عبيد الله بن جحش الأسدي الذي هاجر بها إلى الحبشة مع من هاجر، ولم يكن صادقا في إسلامه ، فأعلن هناك ردته ، وحاول أن يرد زوجته عن دينها فاحتقرته وأبت ذلك ، واعتزلت الناس حتى كادت تموت غما وحسرة ، واستمرت على هذه الحالة حتى فوجئت برسول من عند ملك الحبشة يبشرها بخطبة رسول الله ﷺ لها وتم عقد زواجها في الحبشة .

ومنهن الفرعة ، أو الفرعاء ، تزوجها أبو أحمد عبد بن جحش بن رئاب حليف بني أمية ، ولما هاجر المسلمون من مكة ، عدا أبو سفيان على دار أبي أحمد فباعها وفي ذلك يوبخه أبو أحمد بقوله :

أبلغ أبا سفيان عن ... أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها ... تقضي بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله رب ... الناس مجتهد القسامه
اذهب بها . اذهب بها ... طوقتها طوق [1] الحمامة

(١) أي تطويقا لا يفارقك كما أن طوق الحمامة لا يفارقها .

وكان لأبي سفيان ابن له قضية مشهورة : هو زياد ، وقد لعب دورا هاما في التاريخ الإسلامي ، ذلك أن أبا سفيان كان كثيراً ما يطرق الطائف حيث أصهاره الثقفيين ، وكان في الطائف يتخفف من عادات القرشيين الصارمة ، فكان يرتاد حانا لأبي مريم السلولي ، وكان لطبيب العرب الحارث بن كلدة الثقفي مولاة تدعى سمية ، وقد ولدت له أبا بكرة (نفيع) ونافعا ، فلم يلحقه بنسبه ، إذ كان العرب يكرهون إلحاق أولاد الإماء بأنسابهم ، فإذا ما رأوا منهم نجابة لم يروا بأسا من استلحاقهم[1] وهجر الحارث بن كلدة مولاته سمية، فكانت تتردد على حان أبي مريم السلولي ، حيث التقت هناك بأبي سفيان ، فاصطفاها لنفسه مدة إقامته بالطائف ، ولما انصرف راجعا إلى مكة تركها حاملا . فتزوجها بعده غلام للحارث بن كلدة يدعى عبيد الرومي فوضعت زيادا عنده في السنة الأولى للهجرة ، فكان زياد ينسب لعبيد .

وقد ظهرت مواهب زياد في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه ، فكان أبو سفيان يتمنى أن يستلحقه إلا أنه خشي بأس عمر بن الخطاب فسكت . وقد تم الاستلحاق على يد معاوية فيما بعد ، سنة ٤٤هـ . ولما انهارت الدولة الأموية قرر الخليفة المهدي العباسي إبطال الاستلحاق سنة ١٥٩هـ . وأمر برد نسب زياد إلى عبيد الرومي مولى الحارث بن كلدة الثقفي .

أثر زوجته هند في حياته :

تزوج أبوسفيان هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قبل البعثة بسنتين، وكان هذا الزواج همزة الوصل التي ألفت بين البيت العبشمي لقوة شخصية

---

[1] لما حاصر المسلمون الطائف سنة ثمان نزل أبو بكرة وانضم إليهم وبقي أخوه نافع فألحقه أبوه بنسبه .

هــند . فقــد كانت امرأة معتدة بنفسها تتداخل في شئون القوم وتمضي عليهم رأيها ، وقد ظاهرت أعداء المسلمين منذ البداية . وتحب من يباديهم بالعداوة ولمــا فارق أبو لهب قومه في المقاطعة وظاهر عليهم كان يقول إذا لقي هنداً " هــل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ فتقال . جزاك الله خيرا يا أبا عتبة " .

وتضاعفت هذه العداوة وتحولت إلى بغض أعمى حيث أُصيب والدها وعمها وأخوهــا فــي غــزوة بدر . فنذرت نفسها للثأر لهم ، وعاشت في ذلك الجو البغيض وهي لا تفكر إلا بالانتقام ، وزوجها لا ينكر عليها بل يسعفها لتحقيق أغراضها ، وكانت تستحثه للحرب فتقول :

فــأبلغ أبــا سفيان عني مألكا[1] فــإن ألقــه يومــا فســوف أعاتبه

فقد كان حرب يسعر الحرب إنه لكــل امرئ في الناس مولى يطالبه

ولمــا تأهبت قريش للرحيل في غزوة أحد اجتمع زعماء القوم في دار الندوة يتشاورون في خروج النساء معهم وحرصت هند على سماع المناقشة . فقال أحدهــم " إن خروجهــن أقمــن أن يحفظكــم ويذكركم قتلى بدر ونحن قوم مســتميتون لا نــريد أن نــرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه " واعــترض علــيه آخــر قائلا " يا معشر قريش هذا ليس برأي أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدبرة ــ أي الهزيمة ــ عليكم فتفضحوا فــي نسائكم ، فصاحت إذ ذاك هند تجيبه " أنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلــى نســائك ! نعم نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في ســفرهم إلــى بدر حين بلغوا الجحفة فقتلت الأحبة يومئذ ، واستطاعت ومن معها من النسوة أن تقنعهم بمصاحبة من ترغب منهن في الخروج .

---

[1] رسالــة

وكـــان جبير بن مطعم قد وعد غلامه وحشي بالعتق إن هو قتل الحمزة بعمه طعـــيمة بـــن عدي وكان من قتلى بدر فكانت هند كلما مرت بوحشي تذكره وتقـــول " اشـــف يـــا أبا دسمة[1] واستشف"! وكانت ترتجز مع النسوة لإثارة الحماس في صفوف المشركين فتنشد وينشدن معها :

ويهـــــــا بنـــــــي عـــــــبدالدار[2]

ويهـــــــا حمـــــــاة الأديـــــــار

ضـــــــربا بكـــــــل بـــــــتار .

وتقول ويقلن معها :

إن تقـــبلوا[3] نعـــانق ونفـــــــرش الـــــــنمارق[4]

أو تدبـــــروا نفـــــارق فـــــراق غـــــير وامـــــق[5]

وفـــي أثناء القتال اخترق أبو دجانة الأنصاري صفوف المشركين حتى وصل إلـــى ظعـــنهم ، قـــال أبو دجانة " رأيت إنسانا يحمس[6] الناس حماساً شديداً فصـــمدت[7] إليه ، فلما حملت عليه بالسيف ولول ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضـــرب بـــه امرأة " وكان رسول الله ﷺ قد أعطاه هذا السيف قبيل القـــتال. وكانـــت التي تفعل ذلك هند . ولما نفذ وحشي الشرط أعطته حليها وانكبت على سيد الشهداء تمثل به وتقول :

---

(١) كان وحشي يكنى بأبي دسمـــة .

(٢) ويها : كلمة يقصد بها الإغراء والتحضيض .

(٤) الوسائد الصغـــار .

(٣) أي على العدو .

(٥) محب .

(٦) يحرض .

(٧) قصدت .

شـــفيت مـــن حمزة نفسي بأحد حـــتى بقـــرت بطـــنه عـــن الكبد
أذهـــب عنـــي ذاك ما كنت أجد من لذعة الحزن الشديد المعتمد[١]

وعلت على صخرة مشرفة في الجبل تصرخ قائلة :

نحـــن جزيـــناكم بـــيوم بـــدر والحرب بعد الحرب ذات سعر[٢]
مـــا كان عن عتبة لي من صبر ولا أخـــي و عمـــه وبِكْـــري

وتمدح وحشيا بقولها :

شـــفيت نفســـي وقضـــيت نذري شـــفيت وحشـــي غليل صدري
فَشُـــكْرُ وحْشِّـــي علـــيَّ عمري حـــتى ترم[٣] أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب :

خزيـــت فـــي بـــدر وبعـــد بدر يـــا بنـــت وقـــاع عظيم الكفر[٤]
صـــبحك الله غـــداة الفجـــر بالهاشـــميين الطـــوال الزهر[٥]
بكـــل قطـــاع حســـام يفـــري حمـــزة ليثـــي وعلـــي صـــقري
إذرام شـــيب وأبـــوك غدري[٦] فخضـــبا مـــنه ضواحي النحر[٧]
ونذرك السوء فشر نذر

كما أجابها حسان بن ثابت بقصيدة يصور فيها نفسيتها إذ يقول :

أشِـــرَتْ لكـــاع وكان عادتها [٨] لؤمـــا إذا أشـــرت مـــع الكفـــر

---

[١] المؤلـــم .
[٢] التهـــاب .
[٣] تبلـــى .
[٤] كثير الوقوع في الدنايا .
[٥] من الهاشميين .
[٧] ضواحي النحر : ما ظهر من الصدر .
[٦] شيبة عم هنـــد .
[٨] أشرت : بطرت

وهكـــذا يثـــير الشـــرك في الإنسان أحط الغرائز وأخسها ، مما يجعل البشر كـــالكلاب المسعورة في تصرفاتها التي يتضاءل دونها ما تفعله الوحوش ـــ وممـــا يدل على فرط تأثر أبي سفيان بزوجه ، أنه أخذ يضرب شدق الحمزة رضـــي الله تعـــالى عـــنه بالرمح ويقول " ذق عقق "[1] ورآه الحليس قائد الأحابـــيش وهـــو يفعل ذلك فاشمأز من فعله وصاح : " يا بني كنانة هذا سيد قـــريش يصنع ابن عمه ما ترون لحما "[2] فخجل أبوسفيان وقال له " ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة " وخشي أن يشيع ذلك فنادى قبل الرحيل " إنه قد كان في قتلاكم مثلة ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما نهيت وما أمرت".

واســـتمرت في عدائها لا تلين ، بل لما وجدت أن زوجها قد استسلم في فتح مكـــة ، صرخت في قومها : اقتلوا الخبيث الأخمش الساقين ! ولما أسلمت لم تجـــد مـــن رسول الله ﷺ سوى العفو الشامل ، وأخذ ثلج الإيمان يطفئ فيها الأحقـــاد ويجتـــث مـــنها بـــذور الكراهية ، ويخلِّص نفسيتها من جحيم الحقد المتراكم لتنبت من جديد في رياض الإيمان .

أسندت قريش بعد غزوة بدر إلى أبي سفيان زعامة مقاومة المسلمين ، فتولى هـــذه الزعامة الكريهة بلا منازع بعد أن قتل أكابر مجرميها في هذه المعركة الفاصـــلة ـــ وقـــد ورث أبوسفيان كثيرا من الصفات التي تجعله آخر قرشي يفكـــر فـــي الاستسلام : فهو زعيم البيت الأموي الذي طالما تطلع إلى سيادة قـــريش ، وهو أيضا زعيم البيت العبشمي بعد مصرع عتبة بن ربيعة وأخيه شـــيبة هذا إلى مصاهرته لعتبة . وهو أكبر تجار قريش وصاحب عيرها مما

---

[1] من العقـــوق .

[2] ميتـــاً .

وفر له السلطة الاقتصادية التي أضافت إلى نفوذه الأدبي والسياسي ، لا بين قريش بل بين العرب ، هذا فضلا عما وفرت له من الثراء .

فالمقاومة التي تزعمها أبوسفيان كانت تتمتع بإمكانيات مادية تزيد على إمكانيات المسلمين أضعافا مضاعفة ، وهي التي سيرت في غزوة أحد ثلاثة آلاف مقاتل ، وفي غزوة الخندق حاولت القيام بعملية غزو جماعية للمسلمين في المدينة ، فجمعت اثني عشر[1] ألف مقاتل لهذا الغرض ، ويجب أن نتصور المجهود الشاق الذي يتطلبه تحرك مثل هذا العدد في أرض صحراوية ؛ مع ما يلزم ذلك من تيسير وسائل النقل والتموين . وكان تحت يد أبي سفيان عباقرة الحرب والدهاء أمثال : خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص ومعاوية ، ويكفي أن نتذكر أن واحدا من هؤلاء بعد الإسلام وبعد أن صقلته التربية المحمدية كان كفيلا بترويع جيوش إمبراطورية بأسرها .

ولم تكن الأوثان وعبادتها هي الدافع الرئيسي الذي يحرك أبا سفيان ، إذ لم يبلغ تعلقه بها إلى درجة أن يسعر الحرب وراء الحرب في سبيلها ، فهي أهون عنده من ذلك ، وهو يعلم أنها لا تستحق أن يعرض سلامة قومه من أجلها للخطر . ولكنه وقد آلت إليه القيادة كان من القواد الذين يدعون إلى المحافظة على الوضع كما هو ، أو ما يسميه رجال القانون Statusquo فهو يرى أن زعامة العرب يجب أن تكون في قريش فلا تنتقل من مكة إلى المدينة وإذا آلت زعامة قريش إليه ، فيجب ألا تفلت من يده ، وعلى هذا يجب أن يبذل ما في وسعه لضرب المسلمين الذين نقلوا الزعامة في نظره إلى المدينة.

---

(١) هذا عدا من انضم من الأعراب إليهم ،ومن كان في المدينة من المنافقين واليهود .

وقــد اســتخدم فــي مقاومته كل سلاح يمكنه : مركزه الاجتماعي ، وشرفه المــوروث ، وثــروته ، ومركز قريش في مكة وبين القبائل العربية ، وبذل ما في وسعه لتوجيه اليهود ضد المسلمين .

محافظته على وحدة قومه :

عمــل أبوسفيان على جمع كلمة قومه حتى لا يهنوا ولا يضعفوا في مقاومتهم للمســلمين ، و لذا نجده يبذل كل ما في وسعه لتوحيد صفوف القرشيين ، فلا يظهر مشكل يهددهم بالانقسام إلا ونجد أبا سفيان قد ظهر وعالجه بكل حكمة حتى ينتهي بسلام .

قــررت قريش ــ قبل الهجرة ــ حصار المسلمين في الشعب وأقسمت على مقاطعتهم هذه المقاطعة الظالمة الجائرة واختار القرشيون رجالا منهم لمراقبة تنفــيذ مــا تعهدوا عليه ، وضبطوا هشام بن عمرو العامري يهرِّب المؤونة للمســلمين ، فهمــت قريش بقتله ، ولو قتلوه لانقسموا شيعاً يثأر بعضها من بعض ، و خشي أبوسفيان أن ينقدح الشر بين القوم فحال دون قتله وصرفهم عنه قائلا " أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثلما فعل كان أحسن بنا " .

وبعــد غزوة بدر حدثت أزمة كادت أن تفرق البيت العبشمي لولا أن تداركها أبوسفيان . فقد كان أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبد شمس زوجا لابــنة رسول الله ﷺ السيدة زينب رضي الله تعالى عنها تزوجها قبل البعثة وكان ابن خالتها هالة بنت خويلد وهو من رجال مكة المعدودين أمانة وتجارة ومــالا . وقد خرج مع المشركين في بدر حيث أسره المسلمون ، فمنَّ عليه رســول الله ﷺ وأطلقــه ، فلمــا عاد إلى مكة أذن لزوجته بالهجرة . وبعث

رســـول الله ﷺ زيـــد[1] بـــن حارثة ورجلا من الأنصار ينتظرانها في بطن يأجج على ثمانية أميال من مكة ليصحباها إلى المدينة .

قالـــت السيد زينب رضي الله تعالى عنها (بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبي لقيتني هند بنت عتبة فقالت : يا بنت محمـــد ، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبـــيك ؟ قالت فقلت : ما أردت ذلك ـــ تريد أن تعميها عنها ـــ فقالت هند : أي ابنة عمي ، لا تفعلي ، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق لك في سفرك ، أو بمـــال تتبلغيـــن به إلى أبيك ، فإن عندي حاجتك فلا تضطني[2] مني فإنه لا يدخـــل بيـــن النســـاء ما بين الرجال . قالت : والله ما أراها قالت ذلك إلا لـــتفعل. قالت : ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك ، قالت : وتجهزتُ فلمـــا فرغت من جهازها خرج بها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها نهارا وهـــي في هودج لها ، فلحقهما القرشيون بذي طوى من مكة وتقدم هبار بن الأسود بن المطلب ونافع ـــ وقيل خالد ـــ بن عبد قيس ، فنخس هبار الراحلة فسقطت السيدة زينب ، فنثر حموها كنانته ثم قال " والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما ، وقدم أبوسفيان في جلة من قريش فقال له : أيها الرجل ، كـــف عـــنا نبلك حتى نكلمك ، فكف فأقبل حتى وقف وقال " إنك لم تصب ، خرجـــت بالمـــرأة علـــى رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ،

---

[1] هـــو حب رسول الله ﷺ وكان ينسب لرسول الله ﷺ قال عبدالله بن عمر : ما كنا ندعوه إلا بزيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ فنسب إلى أبيه حارثة وهو الوحيد من أصـــحاب رســـول الله ﷺ الذي ذكر اسمه تصريحا في القرآن العظيم فكان رسول الله ﷺ يحـــبه لحـــب الله تعالى له وذكره لاسمه في كتابه العزيز . وقد آخى بينه وبين عمه الحمزة رضي الله تعالى عنهما .

[2] لا تستحي .

وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رؤوس الـــناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ومالنا في ذلـــك من ثؤرة ــ أي ثأر ــ ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلِّها سراً وألحِقْها بأبيها .

فـــرجع بهـــا كنانة فأقامت ليالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدما بها على رسول الله ﷺ .

وفي ذلك يقول كنانة :

عجبـــت لهـــبار وأوبـــاش قومـــه يـــريدون إخفـــاري [1] ببنـــت محمد

ولســـت أبالـــي مـــا حييـــت عديدهم ومـــا اســـتجمعت قبضا يدي بالمهند

ولـــم يعجب هند بنت عتبة ما حدث ولذا نجدها تتلقى زوجها ومن معه حين انصرفوا عن زينب رضي الله تعالى عنها . فتوبخهم بقولها :

أفـــي الســـلم أعـــيار [2]جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك! [3]

وحدث أيضا بعد غزوة بدر حادث كاد أن يوقع ما بين بني مخزوم وبني أمية فيقسم قريشا إلى حزبين متطاحنين :

فقد تزوج أبوسفيان والوليد بن المغيرة بنتين لأبي أزيهر بن أنيس الدوسي أحد أشراف دوس ودفعا له صداقهما ، فجهز ابنته عاتكـــة لزوجهـــا أبي سفيان ،

---

[1] نقض عهدي .

[3] عركت المرأة أي حاضت .

[2] جمع عير وهو الحمار .

وأمســـك الأخـــرى عن الوليد بن المغيرة ، فلما حضرت الوليد الوفاة أوصى بنيه: هشاما والوليد وخالدا بأن يستردوا الصداق من أبي أزيهر لئلا تكون سبة فـــي حق بني مخزوم ، ولما حل سوق ذي المجاز نزل أبو أزيهر على أبي سفيان فقصده اثنان من أ بناء الوليد وسألاه أن يرد الصداق فقال لهما : " أما وأنتما تحت ظلال السيوف فلا فضربه هشام بن الوليد بالسيف فقتله .

وبدر الشر بين المطيبين [1] والأحلاف في قريش . والمطيبون هم : بنو عبد مـــناف ، و بنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم وبنو الحارث ، والأحلاف هم لعقة الدم هم : بنو عبدالدار وبنو مخزوم ، وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي .

ولـــم يفـــت ما حدث على حسان بن ثابت فقال يعرض بأبي سفيان ويحرض المطيبين على الأحلاف :

غدا أهل ضوجي ذي المجاز كليهما [2] وجار ابن حرب بالمغمس[3] ما يغدو

كســـاك هشـــام بـــن الولـــيد ثيابه [4] فـــابل [5] واخلـــق مثلها جدداً بعد[6]

قضـــى وطـــرا مـــنه فأصبح ماجدا وأصبحت رخواً[7] ما تخب وما تعدو

---

[1] لمـــا مـــات قصـــي جعل وظائف الكعبة لابنه عبدالدار فنازعه ذلك بنو عبد مناف وانقسمت قريش: طائفة تعاقدت مع بني عبد مناف وأخرجت لهم أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب جفنة مملوءة طيبا فغمس المتعاقدون أيديهم فيها ثم مسحوها بالكعبة توكيدا لما بينهم فسموا بالمطيبين ــ وطائفة تعاقدت مع بني عبدالدار وهم الأحلاف .

[3] موضع بطريق الطائف فيه قبر أبي رغال دليل أبرهـــة .

[2] تثنية ضوج وهو منعطف الوادي .

[5] يقال لمن لبس الثوب الجديد " ابل واخلق " .

[6] أي ثياب ذل جديدة لا تزال تتجدد باستمرار .

[4] يريد أنه كساه الذل و العار بقتل حليفه ، والخطاب لأبي سفيان .

[7] سلس القيادة مستكيناً .

فلـــو أن أشـــياخاً[1] ببدر تشاهدوا [2] لـــبل نعـــال القـــوم معتبط[3] ورد[4]

ولـــم يمـــنع العير[5] الضروط ذماره ومـــا منعـــت مخـــزاة والدها هند[6]

فلمـــا بلغ قوله يزيد بن أبي سفيان وكان بمكة جمع بني عبد مناف والمطيبين وقال " أيها الناس أخفر أبوسفيان في جاره وصهره وهو ثائر به " ، ولما رأت الأحـــلاف ذلك اجتمعوا وتعبأوا للقائهم ، ووصل الخبر إلى أبي سفيان وهو بـــذي المجاز ، فدعا بفرسه وألقى عليه لبدا ، وأسرع حتى قدم مكة ، فلحق القوم وقد برزوا للقتال ، فوقف بين الجمعين ، وكان اللواء بيد ابنه يزيد وهو فـــي الحديد ، فاختطفه منه وضرب به بيضته ضربة هده منها ثم قال " قبحك الله ، أتـــريد أن تفرق بين قريش فيقوى علينا محمد ! لعمري ما بدوس عجز عن طلب ثأرهم "[7] ثم قال " أيها الناس : إن خلفنا عدوا شامتا ، وحتى نفرغ ممـــا بينـــنا وبيـــنه نـــنظر فيما بيننا وبينكم فلينصرف كل إنسان إلى منزله " وقرر أن تدفع الدية لدوس إن قبلت . فتفرق القوم وقد أصلح أبوسفيان بينهم ، ولما بلغه شعر حسان قال " يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجل من دوس ، بئس والله ما ظن ."

---

[3] الدم الطري .

[4] الأحمـــر .

[1] يريد من قتل من المشركين من أشياخ قريش يوم بدر .

[2] حضروا هذا الحادث .

[6] لم تغسل الخزي الذي يلحق والدها .

[5] الحمـــار .

[7] المصعب الزبيري : نسب قريش ، ص ٣٢٣

محاولاته في سبيل تطويق المسلمين :

وكـــان لشـــدة حرصـــه على كسب المعرفة مع المسلمين يبذل ما في وسعه لمحاصـــرتهم ، ولكـــن رســـول الله ﷺ ضيق عليه كل سبيل يسلكه في هذا المضمار ، فقد وادع ﷺ القبائل المحيطة بالمدينة ، وسيرت القوات المحمدية علـــى طريق الشام في الغرب وطريق العراق في الداخل ، وأدب المسلمون القبائل التي حاولت النيل منهم .

وكـــان أبوســـفيان يؤمن أنه يستطيع أن يضرب المسلمين من الخلف لو ضم اليهود إلى صفه فكان على اتصال مستمر بهم ، فنزل بعد وقعة بدر عند سلام ابن مشكم سيد بني النضير وسهر عنده ليلة كاملة يستقي منه أخبار المسلمين ويتجسس عليهم ، ويفاوضه في التحالف ضدهم ، وفي ذلك يقول :

وإنـــي تخـــيرت المديـــنة واحدا لحلـــف فلـــم أنـــدم ولـــم أتلوم

ولكـــن رســـول الله ﷺ لم يترك لليهود ـ وكان هواهم مع المشركين ـ أية فرصـــة ليطعنوا المسلمين من الخلف . و انتهز بنو النضير حادث بئر معونة لاغتيال رسول الله ﷺ وقتال المسلمين ، فأجلاهم ﷺ عن المدينة .

وفي غزوة الخندق اتصل أبوسفيان ببني قريظة ليطعنوا المسلمين من ورائهم، ولكـــن نعـــيم بـــن مسعود الأشجعي فوت عليهم هذه الفرصة وأوقع ما بين الأحزاب واليهود ، ولولا ذلك لانحصر المسلمون بين جهتين قويتين .

ولما فشل أبوسفيان في السيطرة على طريق الساحل ، أراد أن يطرق دروب القوافل الداخلية ، من ناحية نجد ليكون تحت حماية القبائل ، ولكن رسول الله ﷺ أغلـــق عليه هذا الباب ، إذ فاجأ زيد بن حارثة قافلة قريش وفيها صفوان بن أمية زوج ابنة أبي سفيان ومعه حويطب بن عبدالعزى ، وغنم زيد القافلة، وفر رجالها ، فكان ذلك إيذانا بتطويق المسلمين لقريش ، بدلا من أن تطوقهم.

وكـــان أبوســـفيان خبـــيرا بدروب الصحراء ومسالكها نظراً لطول ممارسته للـــتجارة ، وكان إذا ما خرج في قافلة يرسل الطلائع والعيون يستقون أخبار المسلمين قبل مرور القافلة ، فإذا سمع أي خبر رجع جانب الحذر على جانب التحري في المعلومات ، وغير طريقه ليفلت ، كما حدث في القافلة التي كانت ســـببا في وقعة بدر الفاصلة . ومع شدة حيطته وخبرته لم يستطع أن يخترق الحصار الإسلامي الذي أخذت تشعر به قريش .

ويدخـــل ضمن التطويق المعنوي ما حدث بين أبي سفيان والشاعر الأعشى مسمون بن قيس :

فقد ارتحل الأعشى وافداً على رسول الله ﷺ وقد مدحه بقصيدة مطلعها :

ألـــم تغـــتمض عيـــناك ليلة أرمدا وعـــادك مـــا عـــاد الســـليم المســـهدا

إلى أن يقول :

فأليـــت لا أرثـــي لهـــا مـــن كلالة[1] ولا مـــن حفـــا[2] حتى تزور محمدا

نبـــي يـــرى مـــا لا تـــرون وذكره أغـــار لعمـــري فـــي البلاد وأنجدا[3]

مـــتى مـــا تُناخِي عند باب ابن هاشم تُراحِـــي [4] وتلقـــي من فواضله يدا

فبلغ خبره قريشا ، فرصدوه على طريقه ، وقالوا : هذا صنَّاجة[5] العرب ما مـــدح أحـــدا قـــط إلا رفع في قدره ، وكانوا يعلمون أن قدر رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يعرب عنه ناطق بفم ، إلا أنهم يخشون شدة أثر شعر الأعشى في قبائل العرب .

---

[2] رقة القدم يقصد طول المسير .

[1] تعب ــ وهو يقصد مطيته .

[3] أغار : أنحدر ناحية الغور مغربا عن تهامة ، وأنجد : دخل النجد ، وهو ضد الغور .

[4] استريحي .

[5] كان الأعشى يسمى كذلك لجودة شعره ، وكأنه يلعب الصنج .

فلما اجتمعوا به قالوا له : أين أردت يا أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم هذا لأسلم . قالوا : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك . قال : وما هي ؟ فقال أبوسفيان : الزنا . قال : لقد تركني الزنا وتركته . ثم ماذا ؟ قالوا القمار . قال : لعلي أن لقيتهُ أصيب منه عوضا من القمار . ثم ماذا ؟ قالوا : الربا . قال : ما دنتُ ولا أَدَنْتُ . ثم ماذا ؟ قالوا : الخمر . قال : أوه ! ارجع إلى صبابة قد بقيت في المهراس[1] فأشربها .

فقال له أبوسفيان : هل لك في خير مما همَمْتَ به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن وهو الآن في هدنة فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وننظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَقاً ، وإن ظهر علينا أتيته . فقال ما أكره ذلك .

فقال أبوسفيان : يا معشر قريش ، هذا الأعشى ! والله لئن أتى محمدا واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشِعْره فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا فأخذها وانطلق . فلما كان باليمامة رمى به بعيره فقتله ! وهذه هي نهاية التكالب على الدنيا ، لا تزال النفس تحدث صاحبها عن المال ، حتى يعرض عن دين الله عز وجل من أجله ، فيدركه الموت في أي واد من أودية الهوى أو شعبة من شعابه .

حرصه على التفوق العددي :

ومع عدم استطاعة أبي سفيان تقليد المسلمين في قاعدة التعبئة العامة ، إلا أنه كان شديد التمسك بتفوقه العددي ، وقد ساعده على هذا التفوق ثراء القرشيين وكثرة سلاحهم . وحرصا على هذا التفوق ، كان يحافظ أشد المحافظة على حسن العلاقات بينه وبين القبائل العربية ، فتحارب في صفه إذا ما دعاها للحرب ، ولا تفوته في ذلك شاردة إلا وقد عمل حسابها .

---

(١) حجر منقور يسع كثيرا من الماء .

تـــنازع عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة رياسة بني عامر ، وكان من عادة العـــرب إذا تنازع بيتان رياسة قبيلة أن يتنافرا ، فيتباهى كلٌ منهما بأفعاله ، فإن لم يسلِّم أحدهما للآخر اختارا حكما يحتكمان إليه ، وقد لا يرتضيان الحكم فتشتعل الحرب بين المتنافسين ويسري ذلك على الحكم نفسه .

وكانـــت العـــرب تحتكم إلى قريش ، فخرج علقمة في بني خالد ، وعامر في بني مالك وجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان . فأبى أن يحكم بينهما ، خشية أن يـــؤدي ذلـــك إلى توتر العلاقات ما بين قريش وما بين بني عامر . وتخلص مـــنهما بقولـــه " أنتما كركبتي البعير الأدرم ــ أي التي لا يظهر عظمها من الســـمن ــ قال : فأينا اليمين ؟ قال : كلاكما يمين ! فانصرفا عنه ـ وبذا جَنَّب قريشا شرَّ هذا التحكيم .

وتنفـــيذا لقاعدة التفوق العددي نجده يهاجم المسلمين في غزوة أحد بأكثر من أربعة أمثالهم ، وفي غزوة الخندق ، لا يهاجم إلا بعد تكوين جبهة من القبائل المناوئة للمسلمين ، وقد بلغت قوات الأحزاب ما يضاهي هذه الأضعاف التي سارت في أحد .

خطته في القتال :

كان يعتمد على فرقة الفرسان ليهدد مشاة المسلمين ، فكان رسول الله ﷺ يدرأ خطرهم بفرقة الرماة ــ وكان يستغل عباقرة الحرب فيما بعد : أمثال خالد بن الولـــيد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة فيعيِّنهم قادة الفرسان ، أو يُسْنِد إليهم حمايـــة مؤخرة الجيش في حالة الهزيمة . إلا أن رسول الله ﷺ كان يفاجئهم جمـــيعا بما يشل حركاتهم ، وما نال المشركون من المسلمين إلا عن طريق مخالفة غير مقصودة لأوامره الحربية ﷺ .

ترجيحه لسلامة قواته :

إن الأثـــر العمـــيق الذي تركته غزوة بدر في نفوس القرشيين جعل أبوسفيان يخشى أن يلحق بقواته ما لحق قريشا في بدر ويكون هو المسئول عن ذلك . ومع أن أبا سفيان يفعل كل ما في وسعه للاستعداد للمعركة إلا أنه في قرارة نفسه كان يرهب القوات الإسلامية .

لمـــا خرجـــت قريش تقصد المسلمين في وقعة بدر ، وكان أبوسفيان قد نجا بالعير ، أرسل خلف قريش يقول : " إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكـــم فقـــد نجاها الله فارجعوا " وكانت مقالته سببا في سماع بني زهرة لنصيحة الأخنس بن شريق فرجعوا ولم يشهد بدر زهريٌ واحد .

وفـــي غـــزوة الخندق وجد أنه قد فشل في نيل ما يتمناه من المسلمين ، كما أخلـــف اليهود وعدهم ، وهبت ريح شديدة لم تترك للمحاصرين قِدْراً ولا نارا ولا بـــناءً وخشـــي أبوسفيان إن استمر الحال على ذلك أن تكون الهزيمة لا محالـــة : فقام ذات ليلة فقال " يا معشر قريش لينظر كل امرؤ مَنْ جليسه ؟ " خشية أن يكون بعض المسلمين قد تسرب إليهم . ثم قال : يا معشر قريش ، إنكـــم والله مـــا أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع ــ أي الخيل ــ والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئنَ لنا قِدْر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحِلوا فإني مرتحل " ثم ركب جمله وارتحل القوم .

الاستطلاع :

كـــان يبـــث العـــيون والأرصاد ويسأل كل من يصادفه عن أخبار المسلمين ويـــرجح دائمـــا كفـــة الحذر فيقبل من الأنباء ما يبعث على تحاشي الخطر ولا يهمه إن كان الخبر صحيحا أم لا .

أقـــبل بقافلة لقريش من الشام فلما اقترب من منطقة المدينة ، لقي مُخشِي بن عمـــرو الجهني وكان موادعا[1] للفريقين فسأله : هل أحسست أحدا ؟ فقال : ما رأيت أحدا أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فـــي شـــن لهما ثم انطلقا ، فأتى أبوسفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيريهما ، ففـــته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه ســـريعاً ، وضرب وجه عيره عن الطريق وساحل بها وانطلق مسرعاً حتى أحرز العير[2]. وفي نفس الوقت استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وأمره أن يخـــبر قريشـــاً بالمبادرة لإنقاذ العير من المسلمين ، وقد عمد إلى هذا التدبير خشية أن تفشل خطة الهرب .

ولما رحل المشركون بعد غزوة أحد تلاوموا وهم بالروحاء فقالوا " أصبنا جد أصـــحابه وقـــادتهم وأشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم! لنكُرنّ على بقيتهم فلنفرغَنّ منهم " وصمموا على إعادة الكرة على المسلمين . وإذا بمعبد بن أبي معـــبد الخزاعـــي قد أقبل من ناحية المدينة فاستقبله أبوسفيان متحسسا أخبار المسلمين .

فقال معبد وكان قد آلمه ما حدث في أحد " محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليك تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عـــنه يومكـــم[3] ، وندمـــوا على ما صنعوا . فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ".

قال أبوسفيان : ويحك ما تقول !

قال معبد : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل .

---

[1] مســـالما .

[2] نجـــا .

[3] يعني معركـــة أحـــد .

قال أبوسفيان : والله لقد أجمعنا الكرة لنستأصل بقيتهم .

قال معبد : فإني أنهاك عن ذلك .

وخشي أبوسفيان فرحل ومن معه .

التهديد وحرب الأعصـــاب :

وكان يعمد إلى التهديد لعله يفت في عضد المسلمين ، فهو يتظاهر بأنه يتحرق للقائهم بعكس طبيعته . وفي طريقه إلى مكة بعد انصرافه من أحد قابله ركب مـــن عـــبد القيس يسير في الطريق المؤدي إلى المدينة فانتهز الفرصة ليبلغ المســـلمين بعـــض تهديداته : فقال لهم " هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم إليكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعـــم . قـــال : فإذا جئتموه فأخبروه إنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم " وكان في إمكانه أن يرسل إلى أحد رجاله برسالة تتضمن ما يرغـــب في قوله إلا أنه يريد أن تنقل العرب عنه ما يحفظ له مكانته ومكانة قريش .

وفي معركة أحد توعد المسلمين بلقائهم من العام القابل في بدر ، ولكنه عندما حـــان الموعد تجده يخرج في ألفين حتى يصل إلى مر الظهران (شمال شرق مكـــة بنحو ٣٠كم) ثم يقوم فيخطب في الناس قائلا : " أيها الناس إني واعدت محمـــداً وأصـــحابه أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عـــام نـــرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن . وقد بدا لي أن أرجع فارجعوا ، فرجعوا. وفي ذلك يقول عبدالله بن رواحه :

وعدنـــا أبـــا ســـفيان وعـــدا فلم نجد ... لمـــيعاده صـــدقا ومـــا كـــان وافـــيا

فأُقسِـــمُ لـــو وافيتَـــنا فلقيتَـــنا ... لأُبْـــتَ ذمـــيما وافـــتقدتَ الموالـــيا

حب الظهور :

وكـــان أبـــو سفيان يحب دائما أن يتميز عن غيره بأفعاله وأن يظهر بمظهر المتفوق الجدير بما أسند إليه من زعامة . قتل ابنه حنظلة في وقعة بدر وأسر ابنه عمرو ، وتوجه القرشيون إلى المدينة لفداء أسراهم . ولم يفعل أبوسفيان. فقـــيل له " افـــد ابنك عمراً " فقال " أيجمع على دمي ومالي . قتلوا حنظلة لا أفـــدي عمراً ؟ دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم " . وانتظر حتى يأسر أحد المســـلمين فـــيفك بـــه أسر ابنه . وظل يراقب المسلمين حتى انفرد بسعد بن النعمان بن أكال فعدا عليه وأسره وحبسه بمكة وفي ذلك يقول :

أرهـــط ابـــن أكـــال أجيـــبوا دعاءه ... تعـــاقدتم لا تســـلموا الســـيد الكهـــلا

فـــإن بنـــي عمـــرو لـــئام أذلـــة ... لئـــن لـــم يفكـــوا عن أسيرهم الكبلا

فأجابه حسان بن ثابت :

لـــو كـــان ســـعد يـــوم مكـــة مطلقا ... لأكـــثر فـــيكم قـــبل أن يوسر القتلا

بِعَضْـــب[1] حسام أو بصفراء نبعة[2] ... نحـــن إذا ما أنبضت[3] تحفز[4] النبلا

فـــأعطى رسول الله ﷺ عمرو بن أبي سفيان لبني عمرو بن عوف ليفكوا به صاحبهم ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد .

وبعد وقعة بدر أقسم ألا يمس رأسه ماء حتى يغزو المسلمين ، وأراد أن يبر بقســـمه فخـــرج فـــي مائتي راكب ، وسلك بهم طريق نجد حتى اقترب من

---

[3] مد وترها .

[4] تقذف .

[1] بحسام قاطع .

[2] شجر تصنع منه القسي .

المديـــنة، وأرســـل جماعة من أصحابه ليلا ليقتلوا من يصادفهم من المسلمين بعـــيداً عـــن المديـــنة ، فصادفوا اثنين من الأنصار في حرث لهما فقتلوهما ورجعـــوا وارتحل أبوسفيان مسرعا ، وليتخفف في سيره أمر من معه بطرح ما يستطيعون من زادهم ، وكانوا قد احتاطوا فحملوا كثيراً من الزاد خشية أن يطول غيابهم ، فطرحوا ما معهم وكان معظمه من السويق[1].

وكـــان رســـول الله ﷺ قد خرج مسرعا في طلب القوم ، فما نجوا إلا بشق الأنفس ، وهذا يدلنا على السرعة التي كان يتم بها تعبئة المسلمين في حالات الطوارئ . ولكثرة ما طرحه أبوسفيان ومن معه من السويق أطلق على هذه الغزوة : غزوة السويق .

وكـــان يغار من شدة حب الصحب رضوان الله تعالى عليهم لرسول الله ﷺ ، ولعل هذه الغيرة نشأت من شدة إعجابه بنفسه وحبه للرياسة فكان يعجب لماذا لا تحبه قريش هذا الحب ! ويقول " ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا " .

٧- هرقل يسأل أبا سفيان :

أرســـل رسول الله ﷺ كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام فأرسل دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى هرقل وهذا[2] نصه:

---

[1] هو حنطة أو شعير يحمس ثم يطحن وقد يات باللبن والعسل والسمن فإن لم يكن شيء من ذلك مزج بالماء وذلك لتزويد المسافر .

[2] د. محمـــد حميد الله الحيدر ــ مجموعة ا لوثائق السياسية في العهد النبوي ط. سادسة بيروت ١٤٠٧هـــ ــ ١٩٨٧م وراجع ما ذكره ابن حجر العسقلاني عن النص الأثري للخطاب في فتح البارئ.

" بسم الله الرحمن الرحيم "

من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فعليك إثم الأريسيين[1] ﴿ يا أهلَ[2] الكتابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينَكم ألا نَعبُدَ إلا اللهَ ولا نشرك به شيئا ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ فإن تَوَلَّوْا فقُولوا اشْهَدوْا بأنا مُسْلِمون ﴾ ودفع دحية الكتاب إلى حاكم بصرى الذي سلمه لهرقل[3].

فأحسن هرقل وفادة دحية وخلع عليه وأمر بحراسته حتى يبلغ مأمنه . ثم طلب أن يبحثوا له في الشام عن آخر قافلة وفدت من الحجاز .

وكانت قريش قد عقدت مع المسلمين صلح الحديبية ، وخرج أبوسفيان في قافلة لقريش إلى الشام وهو مطمئن . وإذا برسل قيصر تطلبه ، فتوجه معهم في جماعة من قومه إلى إيلياء (بيت المقدس) وكان هرقل يقيم بها في ذلك الوقت ، فدعاهم إلى مجلسه وبين يديه من يترجم الحديث ، ولا ننسى أن الشام كانت تابعة للروم وكثير من أهلها يجيد اللغتين .

هرقل : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

أبوسفيان : أنا أقربهم نسبا .

فقال : أدنوه مني . وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ــ أي خلفه ــ ثم قال : إني سائل هذا من هذا الرجل فإن كَذَبَني فكَذِّبوه .

---

[1] الأجراء ، أو العامة .

[2] سورة آل عمران ٦٤ .

[3] أثبتت جميع المصادر الأجنبية الموثوق بها هذا الحادث الهام راجع :
Gibbon, - The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. 5, p. 505.

قـــال أبوسفيان : فوالله لو كذبت ما ردوا عَلَيّ ، ولكني كنت آمراً سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر مافي ذلك إن أنا كذبته أن يحفظا ذلك علي ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه .

قال أبوسفيان : ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

أبوسفيان : هو فينا ذو نسب .

هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل كان من آبائه مِنْ مَلِك ؟.

أبوسفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ .

أبوسفيان : بل ضعفاؤهم .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟

أبوسفيان : بل يزيدون .

هرقل : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل يغدر ؟ .

قـــال أبوســـفيان : فلم أجد شيئا مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها فقلت : لا . ونحن منه في مدة[1] لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال أبوسفيان : فوالله ما التفت إليها مني .

هرقل : فهل قاتلتموه ؟

أبوسفيان : نعم .

هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟

أبوسفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه .

هرقل : ماذا يأمركم به ؟

أبوســـفيان : يقـــول اعـــبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

ثـــم شـــرع هرقل يشرح للحاضرين ما يقصده من أسئلة : فقال موجها الكلام لأبي سفيان :

ســـألتك عـــن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومهـــا : وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وســـألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وســـألتك هـــل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

---

[1] هدنـــــة .

وســـألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ـــ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه . وهم أتباع الرسل .

وســـألتك : أيزيدون أم ينقصون . فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وســـألتك أيـــرتد أحـــد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه . فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر . فذكرت أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر .

وســـألتك بـــم يأمركم . فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان . ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج نبي ولم أكن أظن أنه منكم . فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ـــ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ـــ ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ وأمر بتلاوته على الملأ ـــ وأذن لأبي سفيان وصحبه[1] بالانصراف .

وعجب أبوسفيان من موقف هرقل حتى قال لأصحابه لقد أمِرَ ـــ أي عظم ـــ أمْر محمد ، إنه يخافه ملك بني الأصفر ! قال أبوسفيان .. فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام .

مصاهرة رسول الله ﷺ لأبي سفيان :

كانـــت الســـيدة أم حبيـــبة بنت أبي سفيان من المؤمنات السابقات في الإسلام وهاجـــرت مـــع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة فيمن هاجر ،

---

[1] هذه القصة مروية في كتب الحديث . وراجع صحيح البخاري ـــ أول أبوابه ـــ باب كيف كان بدء الوحي . أخرج هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وهناك حاول عبيد الله أن يردها عن دينها فأبت وثبتت على إيمانها واستبد بها الحـــزن والأسى في دار الهجرة ، وانعزلت عن الناس تكاد تنفطر أسى حتى مات زوجها .

قالـــت[1] السيدة أم حبيبة رضي الله تعالى عنها " فوالله ما هو إلا أن انقضت عدتي . وإذا رسول النجاشي على بابي يستأذن عليَّ في الدخول . فأذنت له . فـــإذا هـــي جارية للنجاشي يقال لها أبرهة كانت قيمة ــ خازنة ــ على ثيابه ودهنه . فبعد أن دخلت عليَّ قالت لي : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ قد كتب إليه أن يزوجه بك. فقلت : بشرك الله بالخير فقالت : ويقول لك الملك مـــن يزوجك؟ ــ أي من الذي يتوكل عنك في عقد زواجك . قالت : فأرسلتُ في الحال إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكَّلتهُ وقلت لها وكيلي خالد بن سعيد بن العاص. وأعطيتها سوارين من فضة كانا في يدي وخواتم من فضة أيضا كانـــت فـــي أصابعي سروراً بما بشرتني به . فلما كان العشاء أمر النجاشي بجعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة فحضروا ، وتم الزواج وأصدقها النجاشـــي أربعمائـــة دينار ، وأقام وليمة لمن حضر . قالت السيدة أم حبيبة رضي الله عنها : " فلما وصل إليَّ المال أرسلتُ إلى أبرهة التي بشرتني فقلت لها : إني كنت أعطيتك ما أعطيتك لكونه لم يكن لي مال يومئذ فهاك خمسين مـــثقالا خذيهـــا واستعيني بها . فأبت وأخرجتْ من حُقّ معها كل ما كنتُ قد أعطيـــتُها إياه أولا فردتَّه عليّ. وقالت إن الملك قد عزم عليّ أن لا أخذ منه شيئا " فلما كان من الغد جاءتها بطيب كثير هدية من عند النجاشي ثم جهزها النجاشي وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة رضي الله تعالى عنه[2].

---

[1] راجع القصة في الطبقات لابن سعد . والمسند للإمام أحمد والسنن لأبي داود والنسائي ــ والمستدرك للحاكم . وراجع ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد ــ جـــ ١ ص ٢٨ ــ ٢٩.

[2] وعلى ذلك تكون رضي الله تعالى عنها قد قدمت فيمن قدم بعد بدر وقبل خيبر .

ولـــك أن تستنبط ما شئت من مكارم الأخلاق التي دلت عليها هذه المصاهرة بالنســـبة لهـــذه التـــي قاست ما قاست من الأهوال ، وبالنسبة لأبيها الذي قاد مقاومة لا هوادة فيها ، ولم يترك بابا من أبواب الكيد للمسلمين إلا وقد طرقه حتى انتهى به الأمر إلى محاولة القيام بتعبئة العرب تعبئة جماعية لغزوهم ، بل ولم يحجم عن إرسال السفاحين لاغتيال رسول الله ﷺ .

ولـــو شئت أن تتصور الموقف : فأخبرني هل في طاقة أي رئيس دولة مهما علـــت نفســـه وكملت أخلاقه أن يحسن ما وسعه إلى رئيس آخر يبذل ما في وسعه لتقويضه ويرسل القتلة لاغتياله ، ويعبئ الدول لحصره وغزوه ؟

ولكـــنا أمـــام المثل الإنساني الأعلى ، منبع مكارم الأخلاق ، الذي بهرنا بكل تصرف كان منه ، ونحن كلما تعمقنا في فهم هذا التصرف وتحليله على قدر مســـتوانا كلمـــا ثبت لنا أن هذا الكمال لا يصدر إلا عن هذه المرتبة وأن كل ظاهرة تنسب إليه ﷺ تمتاز بأنها فريدة في كمالها بالنسبة للعالمين .

وقـــد ظـــن أبوسفيان أن هذه المصاهرة الكريمة ، ستكون سببا في فتح باب المساومة ، إذا ما أشكل أمر بينه وبين المسلمين . لذا نجده حين نكثت قريش عهـــد الحديبـــية يتجه إلى المدينة ويدخل عند ابنته أم حبيبة رضي الله تعالى عـــنها محـــاولا تجديد العهد عن طريقها ، وهو في هذا ولاشك يقيس ما لهند زوجته من سلطان عليه فيظن أن ابنته تستطيع أن تفعل ما تفعله هند ــ دخل بيت ابنته ، فلما أراد الجلوس ، طوت عنه فراش رسول الله ﷺ فقال " يا بنية مـــا أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني " ؟ فقالت :" بل هو فـــراش رســـول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ " قال : " والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر" فقالت " بل خير " وانصرف من عندها ولم يظفر بطائل .

أبوسفيان يحاول رتق ما نقضته قريش من صلح الحديبية :

كان من بين نصوص صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده .

وكان بين خزاعة وبين بني بكر ثأر فاغتنم بنو الديل من بكر الهدنة ليصيبوا ثأرهم من خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الديل في بني الديل وفاجأ خزاعة وهم على ماء لهم يقال له "الوتير" ومد القرشيون البكريين بالسلاح وتطوع بعضهم مستخفيا حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، ولكنهم لم يراعوا للحرم حرمة ، وصرخ فيهم نوفل بن معاوية : يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ! ولجأ بعض الخزاعيين إلى دار بديل ابن ورقاء الخزاعي بمكة ودار مولاه رافع وفي ذلك يقول الأخرز الديلي :

حبسناهم في دارة العيد رافع ... وعند بديل محبسا غير طائل
بدار الذليل الآخذ الضيم بعد ما ... شفينا النفوس منهم بالمناصل[1]
حبسناهم حتى إذا طال يومهم ... نفحنا لهم من كل شعب بوابل[2]
نذبّحهم ذبح التيوس كأننا ... أسود تباري فيهم بالقواصل[3]

---

[1] السيوف .

[2] يريد هجمنا عليهم من كل واد كالمطر .

[3] الأنياب .

فأرسلت خزاع عمرو بن سالم الخزاعي يطلب النصرة من رسول الله ﷺ بعد أن نقضت قريش وبنو بكر عهد الحديبية . فدخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في صحبه فقال :

يا رب إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]

قد كنتم ولدا[2] وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرا اعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا[3] ... إن سيم خسفا وجهه تربَّدا[4]

في فيلق كالبحر يجري مُزْبِدا ... إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا[5]

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير[6] هجَّدا[7] ... وقتلونا ركعا وسجَّدا

فقال رسول الله ﷺ (نصرت يا عمرو بن سالم) ثم جاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة فقصوا ما حدث على رسول الله ﷺ وانصرفوا راجعين إلى مكة .

وكان رسول الله ﷺ عليما بطباع أبي سفيان فقال لمن حوله (كأنكم بأبي سفيان جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة) .

---

(١) القديم .

(٢) يريد أن أم قصي وأم بني عبد مناف كانتا من خزاعة .

(٤) تغير .

(٣) تهيأ.

(٥) موضع بأعلى مكة .

(٦) ماء بأسفل مكة لخزاعة .

(٧) نياما .

اتفق القرشيون على تسيير أبي سفيان إلى المدينة ليجدد العهد ويزيد في المدة، ولمـــا وصـــل المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين السيدة أم حبيبة رضي الله تعـــالى عـــنها ولم تكن قد رأته مذ هاجرت إلى الحبشة وهي مدة تقرب من خمسة عشر عاما .

أكـــان أبوســـفيان يظن أن هذا اللقاء بعد فراق طويل ، وماله من حق الأبوة ســـيكون له أثره في ابنته ؟ ألم يعلم بأن الرجل ما أن يدخل الإسلام في قلبه حتى يفتدي رسول الله ﷺ بكل ما يملك ! فما بالك بأمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن ! إن ملء الأرض مثله لا يمكن أن يغير أنملة في نفسية السيدة أم حبيـــبة رضـــي الله تعـــالى عنها ، ولما لم يجد عندها سوى الإعراض عنه لشركه، انصرف عنها إلى رسول الله ﷺ فلم يرد عليه شيئا . فذهب إلى أبي بكر وطلب منه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال الصديق الأكبر : ما أنا بفاعل ـــ فجـــاء عمر بن الخطاب وطلب منه ما طلب من أبي بكر فقال عمر : أأنا أشـــفع لكم إلى رسول الله ﷺ ! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، فعمد إلـــى بيت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فقال : يا علي إنك أمس القـــوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فأشفع لـــي إلـــى رسول الله فقال له : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ علـــى أمـــر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى السيدة فاطمة الزهراء رضـــي الله تعالى عنها فقال : يا ابنة محمد . هل لك أن تأمري بنيك هذا ـــ يريد الحسن وكان طفلا صغيرا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهـــر؟ قالت والله ما بلغ بنّي ذاك أن يجير بين الناس ، و ما يجير أحد على رسول الله ﷺ قال : يا أبا الحسن : إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني قـــال: والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الـــناس ، ثـــم ألحق بأرضك . قال : أوترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال : لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك . فقام أبوسفيان في المسجد فقال :

أيهـــا الناس إني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق راجعاً فلما قدم علـــى قـــريش ســـألوه : ما وراءك؟ فقص عليهم ما حدث ، فلما وصل إلى مشـــورته لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . قالوا : ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فيما يغني عنك ما قلت .

٨- إسلام أبي سفيان

وضع رسول الله ﷺ خطة حربية محكمة لإجبار مكة على التسليم بدون قتال ، فأمـــر أثناء تجهيز المسلمين للخروج بحراسة الطرق المفضية إلى مكة حتى تعمى قريش عن حركات المسلمين الحربية ، إذ لو علمت بحركاتهم في حينها لتأهبـــت واستعدت للحرب ، وحشد رسول الله ﷺ أكبر قوة ضاربة لتضعف رغبة قريش في القتال إذا ما وجدت نفسها أمام هذا العدد الذي بلغ في بعض الروايات اثني عشر ألفا ، ولا يخفى أن القرشيين كانوا قد اعتادوا التفوق على المسلمين في العدد ، وحصولهم على التفوق العددي الذي اعتادوه في مثل هذا الظرف هو ضرب من المحال . وأصدر الأوامر إلى القواد بحقن الدماء .

وخرج العباس بن عبدالمطلب بأهله مهاجرا فقابل رسول الله ﷺ بالجحفة[1]، ومضى رسول الله ﷺ حتى عسكر بالجيش في مر الظهران على سيرة ثلاثين كيلومتراً من مكة ، وكان ذلك في رمضان سنة ثمان من الهجرة وكان موافقا فصـــل الشـــتاء ــ شهر يناير ــ فأمر ﷺ فإيقاد النيران إعلانا بقدوم الجيش الإسلامي .

أخرج الطبراني عن أبي ليلى قال : كنا مع رسول الله ﷺ يوم مر الظهران ــ يعني يوم فتح مكة ــ فقال ﷺ : إن أبا سفيان بالإراك فخذوه .

---

[1] علـــى أربـــع مراحل من مكة على طريق المدينة وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينـــــة .

وعلم العباس حرص رسول الله ﷺ على حقن الدماء ، فركب بغلة بيضاء كان يركبها رسول الله ﷺ لتكون جوازا لمرور من يركبها على الحرس دون استئذان . وقصد الإراك وهو يقول " يا صباح قريش ! والله لئن بغتها رسول الله في بلادها فدخل مكة عنوة إنه لهلاك قريش آخر الدهر" قال العباس[1] رضي الله تعالى عنه : " فخرجت . فوالله إني لأطوف في الإراك التمس ما خرجت له : إذ سمعت صوت أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزان وبديل بن ورقاء وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ . فسمعت أبا سفيان وهو يقول والله ما رأيت اليوم قط نيرانا !

فقال بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب .

أبوسفيان : خزاعة ألأم من ذلك وأذل .

وجاء العباس فقال : يا أبا حنظلة ..

أبو سفيان : أبو الفضل !..

العباس : نعم .

أبوسفيان : لبيك فداك أبي وأمي. فما وراءك ؟

قال العباس : فقلت : هذا رسول الله ورائي قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به ، بعشرة آلاف من المسلمين .

أبوسفيان : فما تأمرني ؟

العباس : تركب عجز هذه البغلة فاستأمن لك رسول الله ــ فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك .

---

(١) راجع السيرة لابن هشام ــ والطبري جـ ٣ ص ١١٥ ــ ١١٦ .

قـــال العباس : فردفني أي ركب خلفي ــ فخرجت به أركض نحو رسول الله ﷺ ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين نظروا إلي وقالوا: عم رسول الله، على بغلة رسول الله . حتى مررت بنار عمر الخطاب. فقال عمر: أبوسفيان! الحمـــد لله الـــذي أمكـــن منك بغير عقد ولا عهد . ثم اشتد نحو النبي ﷺ ، وركضت حتى اقتحمت على باب القبة وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الـــرجل البطيء ــ يشير إلى قرب المسافة بينهما ــ فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذا أبوسفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني أضرب عنقه .

فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرته .

قـــال العـــباس : ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فقلت والله لا يناجيه اليوم أحد دوني . فلما أكثر فيه عمر : قلت : مهلا يا عمر ! فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا .

فقـــال عمر : مهلا يا عباس ! فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ وذلك لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم.

فقال رسول الله ﷺ اذهب . فقد أمَّنَّاه حتى تغدو به علي بالغداة " .

فانصـــرف العـــباس واحـــتفظ عـــنده بأبـــي سفيان حتى أصبح فغدا به على رســـول الله ﷺ ، فلمـــا رآه ﷺ قال : ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

فقال أبوسفيان : بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا .

فقال ﷺ : ويحك يا أباسفيان : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

فقال أبوسفيان : بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك ، أما هذه ففي النفس منها شيء .

قال العباس : فقلت له : ويلك تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك ، قال : فتشهد .

كان دم أبي سفيان مباحا شرعاً وهذا ما طلبه عمر بن الخطاب جزاء وفاقا له علـــى قـــيادته الباغـــية لقوى الشرك والعدوان ، مما يحول بين الناس وبين الإســـلام ، إلا أن رسول الله ﷺ وقد تمكن من هذا الذي ناصبه العداوة ، أخذ يعالجـــه لعلـــه يؤمن بالله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه فينقذه من الشـــقاء الأبدي الذي ينتظره لو بقي على كفره ، ويهديه إلى السعادة العظمى التـــي تنتظر من آمن بالله تعالى ، ولك أن تتأمل كيف شئت في هذا الإعجاز الخلقي الذي ليس وراءه مرمى .

في الأخلاق العملية نجد أن الفرد قد يقاطع أخاه لهفوة عابرة بل قد تؤدي هذه الهفـــوة إلى تقاطع أسر وعائلات وإلى جرائم قتل وسجون . وإن فعلة واحدة من أفاعيل أبي سفيان لو فعلها إنسان مع آخر وعفا عنه فيها لقلنا إنه من أشد الناس حلما . فما بالك بمن لا يألوا جهدا في إيذاء الآخر ولو ارتكب في سبيل ذلك ما ارتكب! ثم تصور أن ذلك قد ارتكبه مع حاكم مقتدر ، فلو عفا وصفح لقلنا إنه أشد الناس حلما وعفوا . إلى هنا تنتهي درجات العفو التي نسمع بها ، فما بالك بمن يعالج من ركب معه في الأذى كل مركب . ليوصله إلى مراتب السعادة الحقة ويطهره من خبائث النفس ليكون إنسانا طاهرا زكيا ! لم نسمع بعفـــو مـــثل هذا قد اقترن بمثل هذه الرحمة والرأفة وإن الأقلام لتعجز عن وصـــف هذه الخصلة التي لو لم يكن هناك سواها لكفت دليلا عن أن صاحبها هو مصدر مكارم الأخلاق ومالك أعنتها .

وتأمل في رفقه صلوات الله وسلامه عليه بأبي سفيان كي يسلم .

فقد ترك العباس الذي تولى مهمة الدفاع ، وعمر الذي تولى مهمة النائب العام ، يتناقشـــان فـــي مصيره ، كي يقدر الموقف حق قدره ، ويثوب إلى رشده ويفارق عنجهيته . ولعلمه صلوات الله وسلامه عليه بطبيعة أبي سفيان وشدة عـــناده لـــم يـــبادر بدعائه إلى الإسلام ، بل أمر بحجزه ليلته ، ليفكر ويتدبر في أمره .

ولو حبس أبوسفيان حبسا انفراديا لجاز أن تغلبه نفسه ، ويصر على موقفه ، فكان دفعه إلى العباس رضي الله تعالى عنه مع ما بينهما من مودة من قبل ، إفســـاحا للفرصة لإقناع أبي سفيان بالإسلام ، هذا إلى ما في قضائه ليلته مع العباس من طمأنينة لنفسه وتعديل لأفكاره وموقفه .

ولما جاء به العباسُ بادر رسول الله ﷺ ببديهة مسلَّمة يترتب على الاعتراف بها دخوله في الإسلام فوراً . فسأله موبخا : ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ـــ فأقـــر أبوســـفيان بالوحدانية . وإقراره بها يقتضي الإقرار بالرسالات الســـماوية ، وإقـــراره بالإعجاز القرآني يقتضي إقراره بالرسالة المحمدية ، ولكـــن أبا سفيان كان شديد العناد ، فبالرغم من هذا الترفق به ، وبالرغم من لزوم الحجة البالغة له : نجده يقول : أما هذه ففي النفس منها شيء ! يغلظ في الجـــواب وكأنه قد نسي أنه أسير حرب ، بل ومجرم حرب لو حوكم لما كان له جزاء سوى الإعدام . ويذكره العباس بموقفه : فإما الإسلام وإما القصاص ـــ إمـــا الســـعادة الكـــبرى وإمـــا جهنم خالدا فيها . وحينئذ ينطق أبوسفيان بالشهادتين.

وبإسلام أبي سفيان تأكدت خطة حقن الدماء ، إذ أصبحت المقاومة بلا زعيم ، بل هاهو زعيمها سيدعو إلى المسالمة .

ولمـــا أسلم أبوسفيان ، قال العباس " يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا " فقال ﷺ : " نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، و من دخل المسجد فهو آمن . "

وبهذا الإعلان العام لم يبق هناك أي مبرر للمقاومة . فقد حدد رسول الله ﷺ موقـــف الجـــيش من أهالي المدينة المفتوحة ، وبدون هذا التحديد الصريح قد يحـــدث اشتباك بين أهل مكة وبين المسلمين قد يؤدي إلى اندلاع حرب داخل المدينة لا يدرى مداها .

وقلـــنا إن الإعـــلان عـــام : لأن التنويه بدار أبي سفيان خاصة لم يقصد به امتـــيازها عن غيرها ، وإنما قصد منه ذكر اسم أبي سفيان في إعلان الأمان ليسكن ما في نفسه ما يجيش فيها من حب الفخر ، وليفهم من لم يعلم من أهل مكـــة أن أبـــا ســـفيان قد انضم إلى المسلمين فلا داعي للمقاومة . ولو تأمل أبوسفيان في معنى الإعلان لما وجد لنفسه أية ميزة عن غيره سوى هذه .

ولمـــا ذهـــب أبوســـفيان لينصرف قال رسول الله ﷺ لعمه " يا عباس أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ."

إن رسول الله ﷺ يعالج أبا سفيان منذ أسلم لينزع من نفسه بقايا الجاهلية وآثار الشك ، كما سنرى فيما بعد . وهذا الأمر الذي أصدره ﷺ له مغزى آخر لا يدريـــه سوى العباس وأبي سفيان . ثم إن هذا الموضع الذي عينه ﷺ : ممر ضـــيق يمكـــن أبا سفيان من رؤية الجيش المحمدي بوضوح ، فتكون رهبة العرض عليه أشد وأوقع ، ليضرب صفحا عن أي حديث قد تحدثه به نفسه.

إلى هذا الحد يرأف رسول الله ﷺ بعدوه بالأمس ، بزعيم المقاومة الذي طالما حشـــد الحشود لقتال المسلمين وطالما أوقد نار الحرب التي استشهد فيها من استشهد من الأحباب ، إلى هذا الحد يرأف بمن كان يحشد الأحزاب ويعمد إلى كـــل طـــرق الدهـــاء للإيقاع بالمسلمين ، إلى هذا الحد يحرص صلوات الله

وســلامه عليه على إيمان زعيم لم يراقب فيه قرابة ولا مودة بل يرسل إليه بالأمس من يغتاله بالمدينة ، مع كل هذا يحرص على إيمانه كي يفوز بسعادة الدارين .

ومضى العباس بأبي سفيان ليشهد القوات الإسلامية عن كثب ليتمكن الإسلام مــن قلبه . قال العباس : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم . فيقول : مالي ولسليم ! ثم تمر القبيلة فيقول: يــا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : مالي ولمزينة . حتى نفدت القــبائل ، مــا تمر من قبيلة إلا يسألني عنها ، فإذا أخبرته بهم ، قال : مالي ولبني فلان ! حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء[1] فيها المهاجرون والأنصار رضي الله تعالى عنهم لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ــ فقال : ســبحان الله ! يــا عباس : من هؤلاء ؟! قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجريــن والأنصــار . قــال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما . قال : قلت ويحك إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

وهــنا ذكر العباس ما يفسر اختيار رسول الله ﷺ لهذا الموضع . فقال لأبي سفيان (أتذكر تلك الكلمة !) ففهم أبوسفيان ما يريده العباس إذ كان يقول له (لا أؤمــن حــتى أرى الخــيل فــي كداء[2]) فقال أبوسفيان " أي والله إني لأذكرها."

وكانــت راية الأنصار مع سعد بن عبادة فلما مر بأبي سفيان قال : اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الحرمة . اليوم أذل الله قريشا ! وهو يعرّض ولا شك بأبي سفيان . فانتظر أبوسفيان حتى حازاه رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله :

---

[1] من كثرة الحديد .

[2] موضع شمال مكة وهو طريق دخوله ﷺ عام الفتح ، وهو غير جبل كدي .

ألـــم تســـمع مـــا قال سعد ؟ قال ﷺ : وما قال ؟ فقال كذا وكذا . فقال عمر وعـــثمان بـــن عفان وعبدالرحمن بن عوف : ما نأمن أن يكون له في قريش صـــولة . فقـــال رســـول الله ﷺ (بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا) ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب (أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها) .

ثـــم قال العباس لأبي سفيان : النجاء[1] إلى قومك ، فانطلق أبوسفيان مسرعا حتى أتى جمعهم و كانوا في انتظاره فصرخ بأعلى صوته " يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به "

قالوا : فمه ؟ أي ماذا نصنع ؟

فقال : من دخل داري فهو آمن . قالوا : ويحك ! وما تغني عنا دارك ؟

وهـــو لحـــبه الفخر ذكر داره وسكت فلما عجبوا من جوابه أكمل ما جاء في إعلان الأمان .

فقال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وهـــنا قامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بلحيته فقالت : اقتلوا الحميث الأحمس[2] الساقين . قبح من طليعة قوم .

فقـــال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به . فـــتفرق الناس إلى دورهم ، واتجه البعض إلى المسجد ليرقبوا ما يحدث عن كثب.

---

[1] المبادرة والإســـراع .

[2] الحميث زق السمن ــ الأحمش : الكثير اللحم تشبهه بزق السمن .

ولما تم الفتح وتحطيم الأصنام قام رسول الله ﷺ على الصفا يأخذ البيعة على الناس ، وكانت هند بنت عتبة ممن أُهدر دمها ، فخرجت من بيتها مستخفية حتى جاءت رسول الله ﷺ وهو بالأبطح[1] حيث اجتمعت نسوة قريش ، ولما بايعهن رسول الله ﷺ على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ــ قالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح فإني أصيب من ماله هنات .

فقال أبو سفيان وكان حاضرا : ما أصبت فهو لك حلال . فضحك ﷺ وعرفها فقال لها : وإنك لهنا ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا رسول الله . فقال : ولا يزنين فقالت : أتزني الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتموهم ببدر كبارا ! تقصد حنظلة بن أبي سفيان وقد قتل يوم بدر! ورجعت إلى بيتها تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور . فعفا عنها صلوات الله وسلامه عليه ، ولا تنسى أنها هي التي فعلت ما فعلت في غزوة أحد .

قال العلامة السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى : والحاصل أن أبا سفيان كان في أول الأمر مستكرها ، فلم يزل رسول الله ﷺ يترفق ؛ ويتألفه حتى تمكن الإسلام من قلبه .

أخرج البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا . فقال أبوسفيان لهند : أترين هذا من الله ؟ ثم أصبح فقدم على رسول الله ﷺ . فقال له ﷺ " قلت لهند : أترين هذا من الله ؟ نعم هو من الله " فقال أبوسفيان " أشهد أنك عبدالله ورسوله . والله ما سمع قولي هذا أحد إلا الله وهند."

---

[1] الأبطح : مكان رملي منبسط بين مكة ومنى .

وأخرج أبن سعد والحارث بن أبي أسامة وابن عساكر عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم قال " خرج النبي ﷺ وأبوسفيان جالس في المسجد ، فقال أبوسفيان " ما أدري بما يغلبنا محمد !" فأتي النبي ﷺ حتى ضرب في صدره وقال " بالله نغلبك" ؛ فقال أبوسفيان " أشهد أنك رسول الله " .

وحضر أبوسفيان غزوة حنين بعد الفتح ، فلما رأى جولة المسلمين عن رسول الله ﷺ في بداية الموقعة قال " تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام[1] لمعه في كنانته ــ ولما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين أعطى المؤلفة قلوبهم مائة ومن بينهم أبوسفيان وابنه معاوية .

وأخرج ابن سعد والبيهقي وابن عساكر عن أبي إسحاق السبيعي " أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسا فقال في نفسه " لو جمعت لمحمد جمعا !" إنه ليحدث نفسه بذلك إذ ضرب النبي ﷺ بين كتفيه وقال " إذن يخزيك الله " فرفع رأسه فإذا النبي ﷺ قائم على رأسه . فقال : ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة ، إن كنت لأحدث نفسي بذلك ".

ولم يزل به ﷺ ، حتى تمكن الإسلام منه ، فجاهد في حصار الطائف حتى فقئت عينه فرمى بها وقال : خيرا منها في الجنة " وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك وهو يحث الناس ويحرضهم على القتال ويقول " هذا يوم من أيام الله ، انصروا دين الله ينصركم " وتوفي رضي الله تعالى عنه عام ٣١ أو ٣٤هـ .

---

(١) الأزلام : القداح التي يستقسمون بها في الجاهلية ، والقدح سهم خال من النصل وكان أحدهم إذا أراد أمراً أخر ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي ، وعلى الثاني نهاني ربي ، والثالث غفل ــ فإن خرج الغفل (أي الذي لا كتابة عليه) أدارها ثانية ــ وكان عند هبل بالكعبة سبعة أقداح مكتوب على كل منها كلمة :

١- العقل ــ أي الدية ٢- نعم ٣- لا ٤- منكم ٥- ملصق ٦- من غيركم ٧- المياه

٩- " اذهبوا فأنتم الطلقاء "

يعتـــبر فتح مكة حادثا فريدا في تاريخ الفن الحربي ؛ فخطة الفتح قد وضعت بدقـــة بحيـــث يـــتم تســـليم العدو بدون قتال ، ويتم دخول مكة بدون مقاومة جماعية، وروعة هذه الخطة في أنها قد بنيت على حقن الدماء . ودماء من ؟ دماء هؤلاء الذين تفننوا في تعذيب المستضعفين بمكة ، بإلباسهم دروع الحديد فـــي الشمس المحرقة ، وإلقائهم تحت الحجارة على الرمال الساخنة ، وكبهم بالنار، وخنقهم بالدخان ، ووخزهم بالرماح والحراب ... هؤلاء الذين يحرص رسول الله ﷺ على حقن دمائهم : هم الذين صادروا بالأمس أموال المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وحاولوا بعد ذلك استئصالهم .

ومكة بلد حصين منيع ، يسهل على أية قوة أن تقف على مداخله وتصد عنه أي هجـــوم ، ويســـهل عملـــية الدفاع عدم وجود مناطق مجاورة لها تستطيع القـــوات المحاصرة أن تعتمد عليها في عمليات التموين ، مما يجبر المهاجم علـــى فك الحصار إذا طال المكث ، أضف إلى ذلك بعد الشقة بين مكة وبين مركز القوات الإسلامية ــ المدينة ــ ؛ ومما يجعل عملية المحافظة على دماء الفريقيـــن من العمليات التي تدخل في نطاق المستحيلات ، ذلك التوتر الشديد الـــذي يدفـــع المشـــركين إلى الاشتباك مع المسلمين ــ ولو تأملنا خطة الفتح للاحظنا : ــ

١- الســـرية الـــتامة فـــي تجهـــيزها ، وذلك بغلق الطرق المفضية إلى مكة وحراستها .

٢- السرعة ، سواء في إعداد الجيش أو في الحركة ، فبالرغم من كثرة العدو ، وصعوبة المواصلات ، كان الجيش الإسلامي يقطع بمعدل خمسين كيلومترا يوميا ، وهذا أقصى ما تسمح به قدرة الجيش مع المحافظة على راحته .

٣- اشـــتراك القـــبائل فـــي الجيش الإسلامي مثل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وتميم وقيس وأسد ، والحكمة في ذلك إرهاب أهل مكة بكثرة العـــدد المناســـب في ذلك الوقت ، وليبيأسوا من التفاف العرب حولهم وليشهد رجال القبائل انهيار الأوثان بأعينهم .

٤- عسكر المسلون في مر الظهران قرب مكة ، وكان المعسكر الإسلامي في الحل ، وفي موضع صالح للقتال إن حدث قتال ، و قد أعلن الجيش الإسلامي عـــن قدومه بإشعال النيران ليلا ــ فقد كان الفتح في شهر يناير أي في فصل الشتاء ــ وذلك بصورة توعز إلى المشركين بكثرة عدد الجيش الفاتح .

٥- قـــبض علـــى زعـــيم المقاومة في أسرع وقت ممكن ، ولم يسعه سوى الإسلام ، وبذا انهار أهم ركن من أركان المقاومة .

٦- أعلن الأمان العام لأهل مكة .

٧- وزعت القوات الإسلامية لتدخل مكة من جميع منافذها الغربية والشمالية والجنوبـــية أمـــا الشرقية فكان يحميها جبل أبي قبيس والخندمة وهذا التوزيع يكفل تفتيت المقاومة الداخلية إن وجدت ، و توزيعها وتشتيتها والحيلولة دون تكتلها .

٨- كان قواد الفرق الفاتحة :

أ- ممن امتازوا بالشجاعة والسرعة وحسن التصرف .

ب- كانوا من المهاجرين ، ولو كانوا من الأنصار لجاز أن يستثيروا الحماس القبلي في النفوس .

فكانت الفرق بقيادة : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام قائد الجناح الأيسر ، وأبوعبيدة عامر بن الجراح قائد القلب ، وخالد بن الوليد قائداً للجناح الأيمن ، وقاد رسول الله ﷺ ساقة الجيش . وواجه خالد المقاومة التي تجمعت ناحية الخندمة ومن زعمائها عكرمة بن أبي جهل وهو مخزومي مثل خالد ، وقد شتتها خالد بسرعة وسهولة .

٩- صدرت التعليمات لجميع القوات بالاتجاه نحو الحرم ، لسرعة تحطيم الأصنام وهي الحجة الأساسية التي تتكئ عليها المقاومة .

وتم الفتح بسلام ، وتجمعت القوات الإسلامية ناحية الصفا ، وطاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته ولم يكن محرما ، وكان في يده قوس يشير به إلى الأصنام ، وأحيانا يطعنها فتتساقط[١] وهو يقول ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [٢] . ﴿ **جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ [٣] فلما أكمل الطواف ، دعا عثمان بن طلحة فطلب منه مفتاح الكعبة ، فذهب عثمان إلى دار طلحة بمكة ، وكان عثمان قد أسلم في هدنة الحديبية ، فطلب من أمه

---

[١] أخرج البخاري ومسلم والبزار والطبراني وأبو يعلي عن جابر وعبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما قالا (كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها ويقول "جاء الحق وزهق الباطل " فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم) وفي رواية لابن مسعود فجعل يطعنها ويقول " جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " ويؤخذ من الروايات أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يشير إلى بعضها من غير مس ، وتارة يطعنها وتارة يتلو هذه الآية إذا أشار إليها ، وتارة يتلو تلك كلها إذا طعنها .

[٢] سورة الإسراء (٨١) .

[٣] سورة سبأ (٤٩) .

مفتاح الكعبة فأبت أن تعطيه إياه فقال : والله [1] لتعطينه أو ليخرُجنَّ هذا السيفُ من صلبي " فأعطته إياه ، وهو يهددها ليريها أنه صادق جاد فيما طلب ، ويعلم أنها سترجع عن رفضها . فجاء به وسلمه لرسول الله ﷺ ففتح الباب ، وبعد تطهيرها من الصور والأصنام دخلها ﷺ ودخلها معه أسامة ابن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، فدار ﷺ في جوانبها يكبر الله تعالى ويتأكد من خلوها من كل دليل يدل على الشرك ، فوجد حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، وأمر بإزالة صور الملائكة ، ولما رأى صورة لإبراهيم الخليل عليه السلام تصوره وفي يده الأزلام يستقسم بها قال ﷺ : ما شأن إبراهيم والأزلام ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[2] .

وأمر بطمس جميع الصور كلها . وبعد أن صلى داخل البيت طلع على الناس وقد امتلأ المسجد فوقف على الباب وأخذ بعضادتيه فخطب فقال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدَّعَي فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة[3] البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة: مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء : الناس من آدم وآدم من تراب ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**[4] ﴾ ثم قال يا معشر قريش: ما ترون أني فاعل بكم .

---

[1] من حديث رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

[2] سورة آل عمران (٦٧) .

[3] خدمة البيت .

[4] سورة الحجرات (١٣) .

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال ﷺ : اذهبوا فأنتم الطلقاء[1] .

ولك أن تتأمل ما شئت في سمو هذا العفو الجماعي عمن وقفوا موقف الخصومة المغالية في العنف بالأمس ، ولك أن تقارن هذه المساحة بما سجله التاريخ من جرائم قد ارتكبت باسم الدين أو باسم السياسة ، ولك أن تراجع هذه الوحشية التي طغت على أوربا والتي أشعلها الصراع الديني : ففي إنجلترا حاولت ماري الدموية ١٥٥٣ـ١٥٥٨م إعادة الإنجليز إلى حظيرة الكاثوليكية فصبت العذاب صبا على من خالفها ، ومن وسائل التعذيب التي استخدمت عامود الحرق[2] الرهيب ، هذا عدا المصادرة والنفي ، وتجريد كل من يتهم بالهرطقة من الحياة ولو لأسباب لا تمت إلى الهرطقة بصلة . وتأمل ما حدث في حرب الثلاثين عاما ١٦١٨ـ١٦٤٨ إذ نشبت حروب دينية متصلة مروعة بين الأباطرة تعززهم الولايات الألمانية الكاثوليكية وبين الولايات البروتستانتية تعززها الدول التي تدين بهذا المذهب : إنجلترا ، هولندا ، الدانمرك ، السويد . و راح ضحيتها مئات الألوف. وتأمل ما صنعته محاكم التفتيش على عهد فرديناند وإيزابيلا ملكي أسبانيا ثم على عهد الإمبراطور شارل الخامس ١٥١٩-١٥٥٦ ثم ابنه فيليب الثاني الذي ورث أسبانيا وأمريكا الجنوبية ، واقرأ ما ارتكبته هذه المحاكم من فظائع تقشعر لها الأبدان . إذ كانت تسلم ضحاياها إلى الآلات الجهنمية تعصرهم عصرا وتمزقهم إربا : مثل الآلات الضاغطة ، وأجهزة المط التي تمط أطراف الإنسان حتى تقطع أوصاله ، وآلات السحق) " و هي ثقل ينزل على الإنسان

---

[1] أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا .

[2] يربط من ينفذ فيه الحكم بعامود على ارتفاع مترين من الأرض ويلف بالسلاسل ويربط تحت ذراعيه سلالا مملوءة بالبارود ، ويوضع تحت كومة من الخشب تشعل فيها النار ولا يزال الشخص يتعذب بالنار حتى يصل اللهب إلى البارود فينفجر وينسفه .

وهـــو ممدد مقيد فيسحقه " وآلات الفصل ، وآلات الماء : إذ توضع الرأس داخل إطار ويفصل الفكان بقطعة من الحديد ويقوم جهاز بتقطير الماء في الفم حتى يختنق الشخص الخ ...

أمـــا فـــي الحـــروب السياسية فما يُرتَكب أدهى وأمر وكأن الإنسان لا هم له ولا شـــاغل إلا التفنن في تعذيب الإنسان ، ولم يدر هؤلاء أن للإنسانية حقوقاً تجب مراعاتها مهما بلغت الخصومة .

أفيســـتطيع أمثال هؤلاء أن يتبعوا القواعد السامية التي وضعها رسول الله ﷺ لمراعاتها في الحروب ؟!

بل إن هذا العفو المحمدي قد اقترن بما لا يصدر إلا عن مرتبته صلوات الله وســـلامه عليه فقط ، إذ لم يَرُدّ ﷺ على المهاجرين دورهم التي أخرِجُوا منها وتـــركها في أيدي الذين أخرجوهم ، وأقرهم على تصرفاتهم فيها من بيع أو شراء أو سكنى أو انتفاع بها ، وقضى ﷺ أن من أسلم على شيء فهو له.

لما هاجر أبو أحمد عبد بن جحش وكان متزوجاً من الفارعة بنت أبي سفيان، عدا أبوسفيان على داره وباعها ، فلما كان الفتح جاء أبو أحمد إلى رسول الله ﷺ فكلمه في رد داره إليه . فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، وفهم الناس ما يريده ﷺ فقالوا لأبي أحمد : يا أبا أحمد إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل " فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ .

وروى البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أنه قال زمن الفتح "يارسول الله ، أين تنزل غدا ؟ قال النبي ﷺ (وهل ترك لنا عقيل من منزل) فقد عمد عقيل بن أبي طالب بعد هجرته ﷺ إلى جميع رباع أبي طالب بمكة فاستولى عليها ، ثم أسلم وهي في يده .

وأبقى ﷺ سدانة الكعبة لمن كانوا يقومون بها :

روى ابن سعد في الطبقات عن عثمان[1] بن طلحة قال " كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس . فأقبل النبي ﷺ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ــ وذلك قبل الهجرة ــ فأغلظتُ له ونلتُ منه فحلم عني. ثم قال: (ياعثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت) . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . فقال ﷺ (بل عمرت وعزت يومئذ).

ولما كان يوم الفتح جلس رسول الله ﷺ في المسجد بعد أن فرغ من خطابه للناس فقام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده ﷺ فقال : يارسول الله ، أجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فدُعِي له . فقال : (هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء . ثم قال خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم . يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف) .

قال عثمان : فلما ولَّيْتُ ناداني فرجعت إليه فقال ﷺ : (ألم يكن الذي قلت لك؟ قال : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة. قلت : بلى أشهد أنك رسول الله.) وبقي عثمان في سدانة الكعبة حتى استشهد بأجنادين في خلافة عمر فتولاها ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو جد بني شيبة حجبة الكعبة.

---

[1] أسلم في هدنة الحديبية وشهد الفتح وهو من بني عبدالدار وكان لهم دار الندوة . واللواء والسدانة . فلما فتحت مكة محا الإسلام الندوة واللواء .

١٠- " مرحبا بالمهاجر "

لا شيء أوقع في النفس من مقارنة تجريها بين أهل الحق وأهل الباطل ؛ هذه المقارنة كلما اشتد عمقها كلما أيقظت في النفس استعداداتها الكامنة وبعثتها من رقدتها لتبذل جهدها في سبيل الوصول إلى الحق ، وإن أسعد لحظات الإنسان لهي اللحظة التي تتفتح فيها عين بصيرته على هول الباطل الذي كان يقارفه فيخرج منه دفعة واحدة ليهتدي بنور الحق الساطع حينئذ يتضح له أن أتعس ساعاته لهي الساعات التي كرس فيها قواه لخدمة الباطل ونصرته ، فكان خلال هذه اللحظات لا يستمرئ إلا الشر ولا يطيق الخير أينما كان " وإن شر الناس من مات على هذه الحالة " .

برز اثنان من بني مخزوم في الصد عن سبيل الله تعالى :

أبو جهل (أو أبو الحكم) عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم . وعمه الوليد بن المغيرة .

وقد ذهب الصلف والكبر والتعالي بالوليد إلى أن يزعم أنه أحق الناس بالنبوة! مع أن ادعاءه هذا يجعله أبعد الناس عن الخير فضلا عن الصلاح فضلا عن النبوة .

فكان يقول " أينزل القرآن على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها " وهو من التلبيس الذي يلقيه الزعماء لينقاد لهم العامة إذ يخاطبونهم طبقا لما ألفوه من تقاليد مزيفة وقد حكى القرآن العظيم ما قالوه : قال الله تعالى ﴿ **وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القَرْيَتَيْنِ عظيم** ﴾ ـ٣١ـ سورة الزخرف. ومقياس العظمة التي ينوهون بها : هو الثراء وكثرة العدد وفرض السلطة على الغير والاشتهار بالجبروت والقوة والتفاني في عبادة التقاليد مهما كان زيفها ، هذه المقاييس المزيفة لا تصلح معياراً لأي صلاح مهما وحيثما كان ، أما احتجاجهم على اختصاص الله تعالى لمن يشاء برسالاته فهذا تحكم فيما

لا يملكـــه أحد إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ **اللهُ أعلَم حيثُ يَجعَلُ رسالتَه** ﴾ ــ من الآيــة ١٢٤ ــ ســورة الأنعــام . فمقــام الرسالة من الرفعة والعلو بحيث أن لا يسامي ويقتضي من الاستعدادات الشخصية والخلقية والعقلية والروحية ما يلــيق بسمو هذه المرتبة وما يتلاءم وجلال الوحي وهذا مالا يعلمه إلا الخالق عــز وجــل . أما العظمة التي تقتضيها مقاييس البشر إذا انحطوا عن مرتبة الإيمــان بــالله تعــالى : فهي العظمة في التخريب والتدمير والسلب والنهب والفساد ، العظمة في الشر والانحطاط لا في الخير و الكمال .

والوليد هذا هو الذي اختارت قريش ابنه عمارة لتسليمه لأبي طالب في مقابل تســليمه إيــاهم لرسول الله ﷺ . ولعل هذا الطموح في نفس الوليد هو الذي أوحــى إلــيه بهــذه الفكــرة الشيطانية : إذ توجه وفد قريش إلى أبي طالب ليعرضوا عرضهم الخبيث فقالوا " يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد أنهد[1] فــتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك . وأسلِمْ إلينا ابنَ أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفّه أحلامهــم فنقتله فإنما هو رجل برجل " ولا يخفى ما في هذا من القول السم الــزعاف : مــن استثارة لأبي طالب ، وهذا ما تحمله كلمات معينة مختارة منتقاة : مثل : دينك ــ دين آبائك ــ قومك ــ سفه أحلامهم ! حقا إن الشر هو الشــر فــي كــل زمان ومكان ، ولا يعجز أهل الباطل في زخرفة ضلالهم ووضــع الشــعارات المــزيفة عليه ، وصَبِه في قوالب معسولة ليصلوا إلى مراميهم الخبيثة .

ولم يفت مرماهم على ذكاء أبي طالب فأجاب " والله لبئس ما تسومونني[2] ! آخذ ابنك أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله لا يكون أبدا " .

وأراد الولــيد بــن المغيرة أن يوحد رأي المشركين في رسول الله ﷺ حتى لا يختلفوا في القول أمام العرب : فقال : " يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموســم ، وأن وفــود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بصاحبكم هذا ،

---

(١) أقــوى .

(٢) تكلفوننــي .

فـأجمعوا رأيـا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويُردُّ قولكم بعضه بعضا ".

قـتل الإنسان ما أكفره يخشى أن يكذبه الناس ولا يخشى الله تعالى إذ يكذب ما أنزله من الحق .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقول به .

فلـم يقـبل أن يبدأ برأيه فيكون موضع نقاش ، بل أراد أن يعقب برأيه على آرائهم فيكون رأيه هو الأخير وهو الناقد فقال : بل أنتم فقولوا اسمع .

قالوا : نقول كاهن !

قـال : لا والله مـا هـو بكاهـن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا : فنقول مجنون !

قـال : ما هو مجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو يخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قال : فنقول : شاعر !

قـال : مـا هـو بشـاعر ، لقـد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر !

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : وقد فرغ ما عندهم : فما نقول يا أبا عبد شمس !

قـال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائليـن مـن هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ــ وإن أقرب القول فيه لأن تقولا سـاحر ! جـاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته .

لقد جاء المشركون بجميع العقائد الفاسدة التي جعلت النبوة خليطا من السحر والكهانة والشعوذة والإبهام والجنون المقدس ، هذه النبوة التي لا تدور إلا على إدعاء ما هو خارق وما ليس بخارق ، وتتكهن بالغيب وما هو بغيب . وقد أقر الوليد نفسه بفساد هذه المعايير واختار واحدا منها لا عن طريق الاعتباط بل عن قصد يمتلئ دهاءا ومكرا ، فجاء بالقول الذي لا يطالبون فيه بدليل ، ولا يفنده إلا من كان متصلا بالمسلمين أنفسهم ، ومن هنا تظهر خطتهم في إقامة رقابة شديدة حتى لا يتم أو على الأقل لا يكثر هذا الاتصال .

فتفرقوا عنه ، وجعلوا يجلسون لمن يقدم الموسم من العرب فلا يمر بهم ركب إلا حذروهم وزينوا لهم الابتعاد عن رسول الله ﷺ ، فما زادوا بما فعلوه من شأن الإسلام إلا ظهورا إذ انتشرت أخباره بين قبائل العرب كلها .

ولو تدبر هؤلاء ما دار في مجلسهم لوجدوا أنهم قد اعترفوا بالرسالة المحمدية إذ عجزوا عن ضرب الأمثال لرسول الله ﷺ كما أقروا بالإعجاز القرآني ولكنها لا تعمى الأبصار بل تعمى القلوب التي في الصدور .

هذا عن الوليد عم أبي جهل .

أما أبو جهل فقد كرس حياته يتفنن في محاربة الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه والمؤمنين !

وقد اعتبر كعمه أن النبوة شرف ناله بنو عبد مناف يجب أن يدركه بنو مخزوم لأنه لا يقلون عنهم شرفا !

قال ابن اسحق :

إن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة : خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل

لا يعلـــم بمكـــان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهـــم الطـــريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسهِ شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حـــتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حـــتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقـــال: أخبرنـــي يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، و سمعت أشياء مـــا عرفـــت معناها ، ولا ما يراد بها ؛ قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك.

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم، مـــا رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فأضرب عن الإجابة وتحسس موطن الداء عنده فقال: ماذا سمعت ! تنازعْنا نحن وبنو عبد مناف الشرف :

أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا[1] على الركـــب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

والـــرجل فـــي عداوتـــه قـــد جن جنونه حتى لقد أصبح يبغض النبوة لذاتها ويتحسس كل شيء ليطعن فيها .

---

[1] جثـــونا .

كان أبوسفيان عائدا بقافلة لقريش من الشام ، وعلم بخروج المسلمين في طلبه فأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش ليستنفرهم للخروج لحماية تجارتهم.

وقبل وصول ضمضم إلى مكة بثلاث ليال كانت عاتكة بنت عبدالمطلب قد رأت رؤيا أفزعتها ، بعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب تطلبه ، فحضر، فقالت له " يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني[1] ، وتخوفت أن يدخل علي قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عني ما أحدثك به " فقال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر[2] لمصارعكم فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل[3] به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس[4] فصرخ بمثلها . ثم أخذ صخرة فأرسلها. فأقبلت تهوي ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت[5] ، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة." قال العباس : والله إن هذه لرؤيا[6] ، وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد .

ولكن العباس حدث بها الوليد بن عتبة بن ربيعة واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه ففشا الحديث عنها بمكة، وتحدثت بها قريش في أنديتها .

---

[1] أفزعتني .

[2] جمع غادر .

[3] قام .

[4] جبل يشرف على مكة من ناحيتها الشرقية .

[5] تبعثرت قطعا .

[6] يتعجب منها .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة . فما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل : إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا . فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم . فقال لي أبو جهل: يا بني عبدالمطلب : أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها من قال : انفروا في ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت في العرب .

قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير[1] ، إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئا .

قال : فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبدالمطلب إلا أتتني فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ! قال : قلت : قد والله فعلت ، ما كان مني إليه كبير ، وأيم الله لأتعرضن له ، فإن عاد لأكفينكنّه ".

قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه . قال : فدخلت المسجد فرأيته ، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ، ليعود لبعض ما قال فأقع به ، وكان رجلا خفيفا ، حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر . قال : إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال : فقلت في نفسي : ماله لعنه الله ! أكل هذا فَرَق[2] مني أن أشاتمه ! قال : وإذا هو قد سمع مالم أسمع : صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره ، قد جدع بعيره ، وحول رحله ، وشق

---

[1] لم أزجره ولم أقع به .

[2] خوف وفزع .

قميصـــه وهـــو يقـــول : يا معشر قريش : اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبـــي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الفوت. الفوت. قال : فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر ".

ولما نزلت قريش بالجحفة في مسيرها إلى بدر رأى جهيم بن الصلت من بني المطلـــب بن عبد مناف رؤيا : قال " أقبل رجل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وعد رجالا ممن قتل يوم بدر . قال ثم ضرب في لبة[1] بعيره وأرســـله فـــي العسكر ، فما بقي خباء إلا أصابه نضح من دمه فلما سمع بها أبـــو جهـــل قال : وهذا أيضا نبي آخر من بني عبد المطلب ! سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا .

وما كان لأحد أن يعلق النبوة برؤيا يراها إنسان آخر أيا كان ولكن أبا جهل لا تمر عليه مناسبة إلا ويستغلها في الصد والتشنيع .

وكان رسول الله ﷺ قبل الهجرة يقصد البيت الحرام دائما حيث يكثر الطائفون من جميع جهات بلاد العرب ، فكان أبو جهل يرابط هو وأكابر مجرميها في دار الـــندوة وكانت مطلة على الكعبة أو يجلسون قرب الكعبة نفسها ليحولوا دون اتصال الناس برسول الله ﷺ .

كـــان رسول الله ﷺ بالبيت ومعه أبو بكر وعثمان بن عفان رضي الله تعالى عـــنهما ، وكـــان يجلـــس في الحجر عقبة بن أبي معيط وأبو جهل وأمية بن خلـــف، فلمـــا حاذاهم رسول الله ﷺ أسمعوه ما يكره ثم قال أبو جهل : والله لا نصـــالحك ما بل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، ثم وثب ثلاثتهم يريدون رسول الله ﷺ فدفعهم عنه ﷺ هو وصاحباه رضي الله تعالى عنهما ثم قال لهم " أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلا " . وقد قتل الثلاثة في بدر .

---

[1] ضرب بالسكين في موضع الذبح .

وكـــان إذا بلغه إسلام رجل له شرف ومنعة ذهب إليه ووبخه وقال " تركت ديـــن أبـــيك وهو خير منك ! لنسفهن حلمك ولنفيلن ــ أي نخطئن ــ رأيك ، ولنضـــعن شرفك" وإن كان تاجراً قال " والله لنكسِّدنّ تجارتك ولنهلكن مالك" وإن كان ضعيفا عذبه أو أغرى به من يعذبه .

أسـلم آل ياسر قديما : عمار وأبوه ياسر بن عامر العنسي وأم عمار : سمية بنت خياط . وكان ياسر حليفا لأبي حذيفة المغيرة عم أبي جهل .

فكـــان أبـــو جهل يتسلى بتعذيب آل ياسر حتى مات ياسر من شدة العذاب ثم استشـــهدت زوجـــته السيدة سمية رضي الله تعالى عنها إذ طعنها أبو جهل ، وبقـــي عمـــار يصـــارع صنوف العذاب ألوانا ، ليسجل لنا التاريخ ما تفعله البشرية المتوحشة بالإنسان المؤمن ، وما يرتكبه أهل الضلال بمن استمسك بشريعة الله التي لا انفصام لها ولا زوال .

كان العذاب ينصب انصبابا على بدن عمار فيمتَصُهُ إيمانه الكبير بالله تعالى . وذهب العذاب وبقي أيمان عمار. بل لعل هذا العذاب قد دفع روح عمار إلى العـــروج في مراتب من الكمال قلما يصلها إنسان لم يتعرض لما تعرض له عمار ، ولم يبلغ مرتبته في الإيمان .

عـــن علـــي رضـــي الله تعالى عنه قال : إن عمار بن ياسر جاء يستأذن في الدخول على رسول الله ﷺ فقال ﷺ (" ائذنوا له . مرحبا بالطيب ابن الطيب " وفي رواية بالطيب المطيب .) وعن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه قال: كـــان بينـــي وبين عمار كلام فأغلظت له ، فشكاني إلى النبي ﷺ فجئت إلى النبي ﷺ وهو يشكوني إليه فجعلت أغلظ له القول والنبي ﷺ ساكت لا يتكلم ، حتى بكى عمار ، وقال يا رسول الله : ألا تراه ؟ (فرفع ﷺ رأسه وقال " من عـــادى عمـــارا عـــاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله ،) قال خالد : فخرجت فما كان شيء أحب إلي من رضا عمار فاسترضيته حتى رضي."

وأسلم أخو أبي جهل لأبيه : سلمة بن هشام بن المغيرة فاضطهده هو وبنو مخزوم اضطهادا شديدا حتى هاجر إلى الحبشة ثم عاد منها وأقام في مكة ولما أراد الهجرة إلى المدينة حبسه أبو جهل وعمه الوليد وحبسا معه عياش بن أبي ربيعة المخزومي، ولم يستطع سلمة مغادرة مكة إلا بعد مصرع أبي جهل ووفاة الوليد .

ولما تعاقدت قريش على مقاطعة بني هاشم في الشعب حتى يُسلِموُا رسولَ الله ﷺ للقتل ، كان أبو جهل يراقب كل من يشم فيه رائحة العطف على بني هاشم ليمنعه من الاتصال بهم وتهريب المؤونة إليهم ــ وكانت شدة رقابته من بين الأسباب التي أدت إلى تكوين العناصر المعارضة لحلف المقاطعة ــ قبض أبو جهل ذات مرة على حكيم بن حزام وهو يرسل الطعام لعمته أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها فتشادا معا وحضرهما أبو البختري بن هشام وكان موافقا على ما صنعه حكيم بن حزام ، فاشتبك مع أبي جهل وشدخ رأسه وكادت الأمور أن تتطور لولا دهاء أبي سفيان الذي رأى من الحكمة إخماد الفتنة قبل اشتعالها وأطلق حكيم بن حزام .

وحاول أبو جهل أن يقتل رسول الله ﷺ : فجمع كبار قريش وقال (يا معشر قريش إني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت ــ أي شدخت ــ رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ...) ولما ذهب لينفذ جريمته العظمى سقط منه الحجر وفر وهو يرعد من هيبة رسول الله ﷺ .

ولكنه إذ عجز بمفرده عن اغتيال رسول الله ﷺ انتظر حتى واتته الفرصة ليدبر عملية الاغتيال بشكل جماعي .

خافت قريش هجرة رسول الله ﷺ لئلا تصبح دار الهجرة حصنا للإسلام و المسلمين ومركزا ينتشر منه الإسلام فيعم العرب جميعا . فاجتمع الملأ من قريش في دار الندوة ،وأخذوا يقلبون الآراء رأيا بعد رأي وهم لا يرتضون

واحـــدا مـــنها حتى قال أبو جهل (والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعـــد.قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابا جلدا نسيبا وسيطا ــ أي شريفا فينا ! ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمـــدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهـــم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ــ أي الدية ــ فعقلناه لهم) فوافقوا على رأيه وتفرقوا على ذلك وهم مجمعون عليه .

وفـــي ليلة الهجرة نفَّذوا ما أجمعوا عليه ، ولكن رسول الله ﷺ خرج من بيته علـــى القتلة ولم يروه واكتشف القتلة بعد فوات الوقت أن الذي نام في فراش رســـول الله ﷺ هـــو علـــي بـــن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . فرجعوا وأخبروا زعماء قريش ، فتوجه نفر فيهم أبو جهل إلى منزل الصديق الأكبر رضـــوان الله تعـــالى عليه ، فخرجت لهم ابنته أسماء " فقالوا لها : أين أبوك يـــا بنت أبي بكر؟. قالت : قلت: لا أدري والله أين أبي . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدي أسماء لطمة طرح منها قرطيها ثم انصرفوا .

وظهـــر تشـــفي أبي جهل في موقفه بعد نجاة العير التي يقودها أبو سفيان إذ أصر علـــى المسير لقتال المسلمين بالرغم من مخالفة زعماء قريش لرأيه وهذا يدلنا على مقدار تحكمه في قريش :

لمـــا رأى أبـــو ســـفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش يقول " إنكم إنما خرجـــتم لتمنعوا عيركم و رجالكم وأموالكم ، فقد ناجها الله ، فارجعوا ، فقام أبـــو جهل في قريش فقال : " والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاث ، فنـــنحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ــ أي الجـــواري ــ وتســـمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، فأمضوا . "

فقام الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وكان فيهم مطاعا فنادى فيهم بالرجوع " فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة ، لا ما يقول هذا يعني أبا جهل ، فرجعوا معه ".

وكان في الإمكان العودة إذ لم تبتعد قريش عن مكة فقد لحقهم رسول أبي سفيان على مسيرة ١٢٠ كم منها . ولكن أبا جهل تمكن من جرهم إلى الحرب فلطالما تشوق إلى الدماء .

ونزل المشركون بالعدوة القصوى من الوادي ناحية مكة ونزل المسلمون بالعدوة الدنيا من بدر ناحية المدنية . ورأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل له أحمر فقال " إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا ."

وأرسلت قريش عمير بن وهب الجمحي ليحرز لهم عدد المسلمين ، فجال بفرسه حول معسكرهم ورجع فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ثم عاد ليبحث في الوادي لينظر هل هناك من كمين أو مدد آخر ورجع فقال " ما وجدت شيئا ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم ، حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فأروني رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام مقالته ، أتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي : قال : قد فعلت ، أنت عليَّ بذلك ، إنما هو حليفي ، فعلي عقله ، وما أصيب من ماله ، فأت ابن الحنظلية[1] فإني لا أخشى أن يشجر[2] أمر الناس غيره " .

---

[1] الحنظلية هي أم أبي جهل واسمها أسماء بنت مخربة التميمية .

[2] يخالف .

ثم قام عتبة بن ربيعة في الناس فقال " يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه ولا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه : قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا[1] منه ما تريدون ."

قال حكيم بن حزام : فانطلقت حتى جئت أبا جهل فقلت له : يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا الذي قال ــ فقال : انتفخ والله سحره[2] حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة[3] جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه." ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك[4] ، ومقتل أخيك . " فقام عامر يصرخ في الناس واعمراه[5] ! فثارت ثائرة الشر في النفوس وأفسد على عتبة تدبيره . بل إن عتبة نفسه حين بلغه كلام أبي جهل عدل عن رأيه خوفا من اتهامه بالجبن قائلا سيعلم " من انتفخ سحره أنا أم هو " ! ولما التقى الجمعان قال أبو جهل (اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه ــ أهلكه ــ الغداة) فكان هو الحاكم على نفسه بقتله .

---

(1) تنالوا .

(2) السحر ــ الصدر ــ وانتفخ سحره أي جبن .

(3) كناية عن قلتهم وضعفهم وهذا من دهاء أبي جهل فهو بعد أن اتهمه بالجبن ، نفاه عنه ، واتهمه بالخوف على ابنه أبي حذيفة بن عتبة وكان من المسلمين الأولين هاجر الهجرتين .

(4) ثأرك .

(5) كانت سرية من المسلمين ترصد قريشا في نخلة ــ مكان بين مكة والطائف ــ وكانت السرية بقيادة عبدالله بن جحش ، فمرت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وحدث اشتباك بين القوم قتل فيه عمرو بن الحضرمي .

وقد وضعت معركة بدر نهاية وحداً لحياة كلها دفاع عن الباطل وصراع في سبيل الصد عن سبيل الله تعالى ، حياة حالكة لا هدف لها سوى محاربة الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، إذ أسفرت عن مصرع الطاغية أبي جهل .

ورث عكرمة بن أبي جهل عن أبيه ميراثا ثقيلا : ورث عداوة المسلمين ممثلة في اسم أبيه الذي يحمله ، وورث الثأر ، ولم نقل ورث زعامة المقاومة لأن للزعامة شروطها عند العرب وهذه لم تتوافر إلا في أبي سفيان .

سار عكرمة على نهج أبيه في مقاومة الدعوة ومحاربتها إلا أنه لم يكن رئيسا بل مرؤوسا .

وكان على ميسرة المشركين في وقعة أحد ، وهو الذي قتل أمير الرماة عبدالله بن جبير رضي الله تعالى عنه . وحضر موقعة الخندق ، وكان أحد ستة يتناوبون مصاولة المسلمين كل يوم وهم : أبو سفيان ــ خالد بن الوليد ــ عمرو بن العاص هبيرة بن أبي وهب ــ عكرمة ــ ضرار بن الخطاب ــ وكان كل منهم يتولاها يوما . وكان من بين الفرسان القلائل الذين حاولوا اقتحام الخندق .

ولما أرسل الأحزاب إلى يهود بني قريظة يستنفرونهم لقتال المسلمين ، كان عكرمة هو ممثل قريش في هذه المهمة الخطيرة ، وقد تمكن نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله تعالى عنه من الإيقاع بين اليهود وبين الأحزاب ففشل هذا التحالف الغادر.

ولما كان يوم الفتح كان من بين الذين استثناهم إعلان الأمان العام : عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية .

وكانـــت قريش قد جنحت إلى التسليم ، ما عدا أوباشها الذين تزعمهم عكرمة وصـــفوان وسهل بن عمرو وحماس بن قيس أخو بني بكر الذي نقضوا هدنة الحديبية .

ماضٍ حالك رهيب كان يحول بين عكرمة وصفوان وبين التسليم ، ولما أظلهم جـــيش رسول الله ﷺ اعتقدا أنهما مقتولان لا محالة ، فحاولا استثارة الناس للقـــتال فلم يتمكنا ، إذ كان رسول الله ﷺ قد قطع على أمثال هؤلاء كل سبيل يسلكونه لإشعال الحرب .

فلـــم يظفرا إلا بجماعة من أوباش قريش والأحابيش ، وهداهم التفكير إلى أن يـــبدأوا المعـــركة بهؤلاء فإذ ما استحر القتال ثارت حمية القوم واشتبكوا مع المسلمين. ولكن المقاومة لم تضع في حسبانها أن المسلمين سيدخلون مكة من جمـــيع الجهات تقريبا مما يحول دون التجمع لأية مقاومة ، ومما يحصر أية حركة ويجعلها حركة محلية فقط .

وعســـكرت المقاومة جنوبي مكة ناحية الخندمة فواجههم الجناح الأيمن بقيادة خالد بن الوليد الذي شتت المتظاهرين سريعا . وهرب صفوان وعكرمة ، أما حماس فإنه التجأ إلى بيته وأغلق عليه بابه ، فذكرّته زوجه بما كان يقول قبل خروجه ، وكان قد وعدها بإحضار بعض الأسرى من المسلمين لخدمتها !.

فقال :

إنـــك لـــو شهدت يوم الخندمة ... إذ فـــر صـــفوان وعكـــرمة
وأبـــو يـــزيد قـــائم كالموتمـــة ... واســـتقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعـــن كـــل ساعد وجمجمة ... ضـــربا فـــلا يسمع إلا غمغمة
لهـــم نهيـــت خلفـــنا وهمهمة ... لـــم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

خرج عكرمة هاربا إلى اليمن ، وكانت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة قد أسلمت ، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ ، وخرجت تطلبه وهي تعلم أين تجده . وأخبرته أم حكيم بعفو رسول الله ﷺ .

يا لقريش ! ماذا فعل رسول الله ﷺ معهم حتى يلحقوا به وبالمسلمين كل إذاية ممكنة ! وهل يستطيع أحد أن يبرر اضطهادهم لمجرد دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى ! كم ألبوا وكم تآمروا وكم نالوا من المسلمين ! وهاهو رسول الله ﷺ يعفو عنهم بعد أن تمكن منهم ، وظفر بهم .

وأمام هذا العفو المحمدي الكامل الذي يحسن إلى المسيء مهما كانت إساءته ، انهار سور العداوة الموروثة والثأر المتأجج الذي لا يقود إلا إلى شر بعد شر، يا للإنسان حين تنقشع عنه حجب الباطل فيجد نفسه فجأة غارقا في أنوار الحق : ولو كان الخجل يقتل لخر الإنسان صعقا في هذه اللحظة .

عاد عكرمة مع زوجته إلى مكة ليرى هذه المرة رسول الله ﷺ ، و ما أن دخل مجلس رسول الله ﷺ حتى قام إليه واعتنقه قائلا " مرحبا بالمهاجر" !.

يقول المصعب الزبيري[1] " وزعم بعض أهل العلم أن قيام رسول الله ﷺ وفرحه به كان أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه دخل الجنة فرأى فيها عذقا مدللا فأعجبه ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبي جهل. فشق ذلك عليه . وقال " وما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبدا ". فلما رأى عكرمة أتاه مسلما ، فرح به وتأول ذلك العذق عكرمة ".

ونرى أن هذا التعليل باطل لا وجه للصواب فيه ، والحقيقة أن قيام رسول الله ﷺ واحتفاءه بعكرمة يحمل معان بالغة السمو : منها إزالة الأثر العالق في النفوس من مواقف عكرمة وأبيه ، فالإسلام يجب ما قبله ولا يحاسب الأبناء

---

[1] نسب قريش ــ ص ٣١١ .

بما فعل الآباء ، ولا يحاسب المؤمن على ما فعله قبل دخوله في الإسلام، فموقـــف أبـــي جهل ليس له أي أثر في مركز عكرمة بعد الإسلام . وهذا الاحـــتفاء هو الرد المحمدي على جميع ما يجول في خاطر عكرمة نفسه بل وخاطر غيره .

غادر عكرمة مكة بعد إسلامه ليبتعد عن ذكريات تؤلمه إذا ثارت في نفسه ، واستقر في المدينة، فكان كلما مر بمجلس من مجالس الأنصار قالوا " هذا ابن أبـــي جهـــل"! وسبوا أبا جهل . فشكا ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ " لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات ".

وإذا بعكرمة اليوم غيره بالأمس : إذا به بطل من الأبطال الذين أوقفوا أنفسهم علـــى الجهـــاد في سبيل الله تعالى . لما ندب أبو بكر الناس لغزو الروم قدم الـــناس فعســـكروا بالجرف على ميلين من المدينة ، وخرج أبو بكر الصديق يطـــوف بالمعسكر ويتفقد حالته ، ويعين المحتاج على التجهيز ، وفي طوافه وقـــف على خباء ترابط حوله ثمانية أفراس وبجواره عدة قوة للقتال وإذا به خـــباء عكرمة ، فسلم عليه أبو بكر ، وجَّزاه خيراً لحسن استعداده ، وعرض علـــيه المعونـــة ، لما رآه من كثرة نفقته ، فقال (أنا غني عنها ، معي ألفا دينار فاصرف معونتك إلى غيري) لقد بذل عكرمة ماله في سبيل الله تعالى ، وآثـــر بالمعونة من هو أحوج إليها منه . أين هذا من تكالب الحاكم والمحكوم على جمع المال بأية وسيلة ومن أي طريق ، ثم صرفه في غير وجوهه ، ولا يصرف مال جمع بهذه الكيفية المتعسفة إلا على ملذات النفس وأهوائها .

وفي يوم اليرموك كان من بين أربعمائة بايعوا الله تعالى على الموت واستشهد رضي الله تعالى عنه لتكون كلمة الله هي العليا .

١١- هو أحلم من ذلك وأكرم

برز من بني جمح في إيذاء المسلمين زعيمان من هذا البطن من قريش : أبي وأمية ابنا خلف بن وهب وورث عنهما صفوان بن أمية هذه التركة الكريهة.

كـــان أبي بن خلف يقاطع من يجلس إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، و يغلظ علـــيه ، جلس صديقه الحميم : عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية ، ذات مرة إلى رسول الله ﷺ ، وسمع القرآن الكريم فبلغ ذلك أبي بن خلف ، فأتى عقبة فقال : ألم يبلغني أنك جالست محمدا أو سمعت منه وعاهد عقبة أن يبالغ في إذاية رسول الله ﷺ ليكون ذلك دليلا على رجوعه عن الجلوس مرة ثانية . أهل الباطل لا يلقي بعضهم إلى بعض إلا ما يزيدهم ثبورا وإمعانا في الغواية .

وكان يطمع في أن يقتل رسول الله ﷺ ، وأعد لذلك فرسا اسمه العوذ ، فكان إذا لقي رسول الله ﷺ قال : يا محمد ، إن عندي العوذ أعلفه كل يوم فرقا[1] من ذرة أقتلك عليه . فيقول ﷺ " بل أنا أقتلك إن شاء الله " .

ومشـــى أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ وهو يبغي تشكيك الناس في البعث، وقد جاء معه بعظم بالٍ ، أصبح هشّاً من طول الزمن . فقال (يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم!) ثم فته في يده ونفخه نحو رسول الله ﷺ. فقـــال ﷺ { نعم ــ أنا أقول ذلك ﴿ **يُحْيِيها الذي أنشأها أوّلَ مرةٍ وهو بكل خَلْقٍ عليمٌ**[2] ﴾ } فبهت الذي كفر ولم يحر جوابا .

لـــم يكـــن أبي بن خلف مستفهماً ، ولا طالبا الوصول إلى الحقيقة ، بل كان مكابراً ، معاندا ، مصرا على الكفر ، ومثل هذا لا يستفيد من الأدلة والبراهين

---

[1] مكيال يسع ستة عشر منـــا .

[2] من الآية ٧٩ سورة يس .

والحجج ، بل إنه كلما جيء له بدليل ازداد عتوا ونفورا وتمسكا بما عليه من الباطل ﴿ **ومنهم من يَستمعُ إليك وجَعَلْنا على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقْـرا. وإن يـرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بها. حتى إذا جاءوكَ يجادلونكَ يقولُ الذين كفرُوا إن هذا إلاّ أساطيرُ الأوَّلين ــ ٢٥** ﴾ سورة الأنعام .

لقـد طلب أمثال هؤلاء من رسول الله ﷺ الإتيان بما حدثتهم به أنفسهم على وجه العناد لا على وجه الاقتناع (فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما سألوا لعلم الله سـبحانه أنهـم لو عاينوا أو شاهدوا ما أرادوا لاستمروا في طغيانهم يلهون ولظلـوا في غيهم وضلالهم يترددون[1] فقد رأوا من دلائل النبوة مالم يترك شـبهة لشاك ولا وجها لطالب حق ، وكان سؤالهم ما سألوه عن جهل بحكمة الله تعالى في امتحان الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل ، وأن يكون إيمانهم عن نظـر وتفكير في الأدلة فيقع الثواب على حسب الجهد المبذول ، ولو كشف الغطاء عن البشر ، وحصل لهم العلم الضروري بالنبوات ، إذن لألغينا وجود الإنسـان وجـردناه من خصائص تكوينه ، ولطالبنا أن يكون البشر ملائكة : فطبيعة الإنسان تقتضي منه التفكر والتدبر ليهتدي إلى الحق وقد جاء ﷺ فبين للبشر جميعا ما اختلفوا فيه ، وقرر لهم شريعة الله تعالى ، وبينها البيان الذي ليس وراءه مرمى ، فكل مطلب تعجيزي بعد ذلك لا يصدر عن سلامة قصد، بل إن صاحبه كلما أجيب إلى مطلب استدعاه العجب إلى طلب آخر وهكذا ــ ولا جرم أن المعاند المكابر ، لا يقتنع ببرهان ولا يهتدي بدليل بعد أ ن جاءته آيـات الله البينات فأغمض عنها بصيرته ، وسد دونها سمعه ، وحجب عنها وعـيه ، فلـو جئته بكل دليل لا يسلم أبدا ﴿ **تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق**

---

[1] السيرة الشامية للإمام الحافظ محمد يوسف الصالحي الشامي الشافعي ت ٩٤٢هـ (سبل الهدى والرشـاد فـي سـيرة خير العباد ﷺ) في ط١ ورقة ٢٨٠ وقد تشرفنا باقتراح تحقيق هذه الموسـوعة في السيرة النبوية ووافق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة على تحقيقها ونشرها وقد صدر منها حتى ١٤١٢هـ عشرة أجزاء .

فـبأيِّ حديث بعدَ اللهِ وآياته يُؤْمنونَ – ٦ – ويلٌ لكلِّ أفّاك أثيم – ٧ – يسمعُ آياتِ اللهِ تُـتْلى عليه ثم يصرُّ مُسْتكبراً كأن لم يَسمَعْها فبشِرْه بعذابٍ أليم –٨– وإذا علِمَ منْ آياتِنا شيئا اتّخذها هُزُواً أولئك لهم عذاب مهين –٩ ﴾ سورة الجاثية. وجميع من سلكوا هذا المسلك ماتوا مشركين .

جـاء أبي بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عـبد يغوث ، والعاصي بن وائل فقالوا (لو جُعِلَ معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك!) وقد رد القرآن العظيم على أمثال هذه الاعتراضات قـال تعـالى ﴿ وقـالوا لولا أُنْزِلَ عليه ملكٌ ، ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضِيَ الأمرُ ، ثم لا يـنظرون –٨– ولو جَعلْناه مَلَكاً لجعلْناهُ رجلا وَلَلَبَسْنا عليهِم ما يلبِسون –٩ ﴾ سورة الأنعام .

وفي غزوة أحد كان أُبيّ بن خلف قد أعد لأُمَةً[1] تستره من رأسه إلى أخمص قدميه ، ليكون في مأمن من أية إصابة ،وركب العوذ[2] ، واتجه إلى شِعْبٍ في جـبل أحد كان يقف فيه رسول الله ﷺ في جماعة من الصحب رضوان الله تعـالى عليهم ، فأقبل يقول أين هذا الذي يزعم أنه نبي ، فليبرز لي ، فإنه إن كان نبيا قتلني ، فقال الصحب رضوان الله تعالى عليهم (أيعطف عليه رجل منا يا رسول الله) فقال ﷺ (دعوه) . فلما دنا ابن خلف ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها (انتفض بها انتفاضة تطايرنا عـنه تطايـر الوبر من ظهر البعير إذا انتفض) ثم استقبله ، وقد أبصر ﷺ ترقوته من سابغة(٣) الدرع ، فطعنه طعنة أرسلته من على فرسه يتقلب من شـدتها على الأرض وهو يخور خوار الثور ، وقد أصاب طرف الحربة ما ظهر من ترقوته ، وكاد أن يتحطم من قوة الصدمة ، فانقلب منهزما إلى قومه وهـو يقـول (قتلنـي محمد) فقالوا له (ذهب فؤادك والله إن يكن بك بأس)

---

[1] لباس لحرب .

[2] اسم فرسـه .

[3] ما يغطي العنق من الدرع .

فأجـابهم مؤكـدا مـا قال (إنه قد قال لي بمكة أنا أقتلك والله لو بصق علي لقتلنـي[1]) فـتأمل مـا يفعله الجمود والعناد بالنفس ، إذ يعلم أُبيّ تمام العلم صدقه ﷺ ومع ذلك لا يؤمن . ومات عدو الله بسرف[2] أثناء عودة المشركين إلى مكة .

وفي مصرع أُبي بن خلف يقول حسان بن ثابت :

ألا مـن مـبلغ عنـي أبـياً	فقـد ألقيـت في سحق السعير
تُمنّـيّ بالضـلالة مـن بعـيد	وتُقْسِـمُ إن قدرتَ على النذور
تمنّـيك الأمانـي مـن بعـيد	وقـول الكفر يرجع في غرور
فقـد لاقـتك طعـنة ذي حفاظ	كـريم البيـت ليس بذي فجور
لـه فضـل على الأحياء طرا	إذا نابـت ملمـات الأمـور

أمـا أخوه أمية وكان يقال له الغطريف وهو الذي تولى تعذيب بلال بن رباح رضي الله تعالى عنه ، فكان يخرجه إذا حميت الرمال في الظهيرة ويطرحه في بطحاء مكة و يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره أو يلبسه دروع الحديـد كـي يـتعذب بحـرارتها ، ثم يقول له . لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيجيبه بلال وهو في ذلك البلاء – " أحد . أحد " .

ويمـر ورقـة بن نوفل على أمية بن خلف وهو يصنع ببلال ما يصنع فيقول (أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا).

---

[1] في تفسير المنار { لم يقتل النبي ﷺ في حياته أحدا سواه ، لأنه على كونه كان أشجع الناس وأثبتهم في مواقف القتال ، كان أرحمهم وأرأفهم ، ولذلك كان يكتفي بالتدبير والتثبيت ، والدفاع عن نفسه ، ولعله لو رأى مندوحة عن قتل أبي لما قتله } –جـ٤– ص ١٠٣ : ١٠٤ ونقول أن أبيا قد حكم على نفسه بالقتل إذ علق صحة النبوة بقتله .

[2] على ستـة أميال من مكـة .

وكـــانوا كلما زادوا في التنكيل به والضغط عليه ليتفوه بكلمة الكفر يقول " إن لساني لا يحسنه " وأسلموه للولدان يهزأون به ويستعرضونه في شعاب مكة. وجـــاء الصـــديق الأكبر ذات يوم فقال لأمية بن خلف " ألا تتقي الله في هذا المســـكين! حـــتى مـــتى ! قال " أنت أفسدته فأنقذه مما ترى " وفرح أبو بكر لإقـــبال أمية على بيعه واشتراه منه بخمس أوراق من ذهب أو تسع . وأراد أمـــية أن ينغص الصفقة بعد تمامها على الصديق فقال : " لو أبيت إلا أوقية لبعناك " فقتله الصديق غيظا حين أجاب " لو أبَيْتُم إلا مائة لاشتريته" وأعتقه . فكان عمر رضي الله عنه إذا ذكر ذلك يقول (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) يعني بلالا .

وكان أمية شديد الكبر والصلف. روى ابن إسحق عن عبد الرحمن بن عوف أنـــه قـــال : كان أمية بن خلف لي صديقا بمكة ، و كان اسمي عبد عمرو ، فتســـميت حين أسلمت عبدالرحمن[1] ونحن بمكة ، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، أرغبت عن اسم سماكه أبواك ؟ فأقول : نعم فيقول : "فإنـــي لا أعرف الرحمن ! فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ! فكان إذا دعاني : يا عبد عمرو ، لم أجبه . قال فقلت له : يا أبا علي ، أجعل ما شئت . قال : فأنـــت عبد الإله . قال : فقلت نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله ، فأجيئه ، فأتحدث معه ."

وكـــان أمـــية حريصـــا على إيذاء المسلمين فلم يفته مجلس من مجالس الشر إلا وقد حضره ، وكان يهمز ويلمز كلما مر به رسول الله ﷺ .

---

[1] الذي سماه عبدالرحمن هو رسول الله ﷺ . ونحن نرى أن محوه وإلغاءه صلوات الله وسلامه عليه للأسماء ذات المدلـــولات الجاهلية من دلائل نبوته ﷺ والذي يتتبع ذلك يعلم انفراده صلوات الله وسلامه عليه في تقرير التأدب الشامل في الأسماء .

ولمـــا اشـــتد أذاه لابـــن عمه عثمان بن مظعون الجمحي وكان من السابقين الأولين في الإسلام ، قال موبخا له :

أأخرجتَنـــي من بطن مكـــة آمنا[1]	وأســـكنتني في صرح بيضاء[2] تقذع[3]
تـــريش نـــبالا لا يواتـــيك ريشُـــها	وتَـــبْري ســـهاما ريشـــها لـــك أجمع
وحاربـــت أقوامـــا كـــراما أعـــزة	وأهلَكـــت أقوامـــا بهـــم كنت تفزع[4]
ســـتعلم إن نابـــتك يومـــا ملمـــــة	وأســـلمك الأوبـــاش مـــا كنـــت تصنع

وفي أثناء المعركة (بدر) رأى عبد الرحمن بن عوف ومعه أدراع يحملها فلما رآه قـــال : يـــا عبد عمرو! قال عبدالرحمن " فلم أجبه ــ فقال : يا عبد الإله فقلـــت : نعم ــ قال : هل لك فيّ ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك" قال : قلت : نعم . ها الله ذا[5] . قال فطرحت الأدراع من يدي ، وأخذت بيده ويد ابنه ، فرآه بلال : فصرخ يقول رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجـــا. فقال له عبدالرحمن : أبأسيري ! قال بلال : يا أنصار الله رأس الكفر أمـــية بـــن خلـــف . وكان بلال قد لاحظ أن معظم المهاجرين يفضلون أسر أعدائهم حتى كره ذلك سعد بن معاذ الأشهل سيد الأوس ، ولذا استغاث بلال بالأنصـــار، وســـرعان مـــا أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم فقتلوا أمية وابنه.وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن عوف " يرحم الله بلالا ذهبت أدراعي ، وفجعني بأسيري" .

---

[2] صرح بيضاء ــ مكان بالحبشـــة .

[3] تكـــره .

[1] يعني هجرته إلى الحبشـــة .

[4] تنتصر وتلوذ .

[5] أي أقسم على هذا .

وورث صفوان عن أبيه : الصد عن سبيل الله تعالى ، وهو لثرائه أطعم جيش قريش يوما حين خرجت في خيلائها تقصد بدرا . وحين تعبأت قريش لغزوة أحد كلم قريبه الشاعر أبا عزة عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحي ليحض على قتال المسلمين ، وكان أبو عزة ممن أسر في وقعة بدر فمنّ رسول الله ﷺ بفك أسره بعد أن أبرم عليه عهدا بعدم التحريض على قتال المسلمين. ومازال به صفوان حتى أغراه على نقض عهده ، فوجهه إلى بني كنانة يستثيرهم.

ولم يصبر صفوان حتى تخرج قريش للغزو بل أراد أن ينفرد بارتكاب جريمة الاغتيال : إذ اتفق مع قريبه عمير بن وهب على اغتيال رسول الله ﷺ ، وأغراه بقضاء ديونه وضمن له رعاية شأن بيته ،وكان يقول لقريش " أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر! " ولكن عمير بن وهب عاد مسلما متفانيا في الدعوة إلى الله عز وجل ، عاد محمديا لا قرشيا كما تبغي قريش.

وكان صفوان من رؤوس قريش الذين خرجوا لقتال المسلمين في أحد وقد خرجت معه زوجته برزة بنت مسعود الثقفية ، وقاد المشاة في هذه المعركة العنيفة .

ولما أجهد قريش الحصار الاقتصادي الذي أعلنه المسلمون على مكة اجتمع الملأ من قريش لتدبير خطة لفك هذا الحصار فقال صفوان ((إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ــ يقصد رسول الله ﷺ ــ ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسلك ! وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء ! وإنما حياتنا بمكة : على التجارة إلى الشام في

الصيف وإلى الحبشة واليمن في الشتاء ، فأشار عليه الأسود بن المطلب بقوله تنكب[1] الطريق إلى الساحل وخذ طريق العراق ، فوافقوا على هذا لاعتقادهم أن هذا الطريق لن يطرقه المسلمون.))

وتجهز أبو سفيان وصفوان وحويطب بن عبد العزى وخرجوا في قافلة كبيرة يطلبون العراق ، وبلغ الخبر المسلمين ، فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة على رأس مائة رجل لأسر القافلة ، فلحقها زيد عند ماء يقال له الكدر[2] فهاجمها وهرب رجالها وغنمها ، وبذلك فشلت خطة فك الحصار .

ووثبت بنو لحيان من هذيل على بعث من المسلمين تبلغ عدتهم عشرة رجال عند ماء يقال له الرجيع ليبيعوهم لقريش في مكة فدافعوا عن أنفسهم حتى قتلوا وأسر منهم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل ، فابتاع صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ، وبعث به مع مولى له يقال له نسطاس ، فخرج به إلى التنعيم[3] وخرج أبو سفيان في جماعة من قريش فشهدوا قتله رضي الله تعالى عنه .

ولما أظل جيش رسول الله ﷺ مكة عام الفتح ، عز على صفوان أن تُغلب قريش وتستسلم ، فاجتمع مع عكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو وقرروا أن يجروا قريشا للقتال ، وانضم إليهم جماعة من بني بكر يتزعمهم حماس بن قيس ، إلا أن خالد بن الوليد شتت شملهم وهرب صفوان بن أمية إلى جدة . وكان صفوان من بين الذين أهدرت دماؤهم . فجاء عمرو بن وهب إلى

---

[1] تحاشى .

[2] شمال شرق المدينة بنحو مائة وعشرين كيلومترا .

[3] بين علمي التنعيم وباب العمرة بالحرم ٦,١٤ كم ، وذلك ليقتله خارج حدود الحرم .

رسول الله ﷺ فقال (يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هاربا منك ليقذف[1] نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك) فقال ﷺ : هو أمن ، قال: " يا رسول الله فاعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه علامة يعرفه بها.

فخرج عمير حتى أدركه قبل إبحاره . فقال : يا صفوان ، فداك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتك به .

قال صفوان : ويحك ! أعزب عني فلا تكلمني .

قال : أي صفوان . فداك أبي وأمي ، أفضل الناس ، وأبر الناس وأحلم الناس، وخير الناس ، وابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك.

قال صفوان : إني أخافه على نفسي .

قال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم .

واستطاع عمير أن يقنع صفوان بالعودة معه .

ولنا أن نتأمل ماذا تفعل صحبة رسول الله ﷺ بعمير ، فعمير قبل إسلامه كان يجلس إلى ابن عمه صفوان في الحجر أمام الكعبة يتآمران على رسول الله ﷺ. والآن يتكبد عمير المشاق والسفر ويتلهف للحاق بصفوان بعد أن حصل له على الأمان ، كل ذلك لينقذ صفوان من شركه ليلحق بزمرة المؤمنين . وقد رده في البداية رداً جافاً : إ ذ تذكر هذه المؤامرة التي كانت بينهما وكيف نقضها عمير ، فلماذا لا يكون قد جاء ليمكر به . ولكن عميرا يصرف

---

[1] يريد ليركب البحر مهاجرا .

صفوان بحسن سياسته عن التفكير فيه ، هذا التفكير الذي يؤدي به إلى الشك في حقيقة حضوره ، ثم يذكره بما عهده في رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق التي يعلمها الجميع . فلَكَم عفا عمن يريد قتله وعمن آذاه . ولكن صفوان تردد حين طافت بمخيلته ذكريات ماضية وماضي والده وعمه فاستعظم ما كان . فقال لعمير : إني أخافه على نفسي . فعلم عمير ما يجول بخاطره وذكره بأن عفو رسول الله ﷺ أعلى مما يدور بخلده أيضا ، وهنا اطمأنت نفس صفوان ، فلم ير للرحيل من فائدة ورجع مع عمير .

فلما جاءا رسول الله ﷺ [1] قال صفوان : إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟

فقال ﷺ "صدق" فقال صفوان : فاجعلني فيه بالخيار شهرين ، فقال ﷺ " أنت بالخيار فيه أربعة أشهر " .

ورأى صفوان بعينه سقوط الأصنام : فالعزى التي تعظمها قريش وكنانة ومضر كلها ، قد هدمها خالد بن الوليد ــ وسواع ــ صنم هذيل ــ هدمه عمرو بن العاص ــ ومناة بالمشلل قد هدمها سعد بن زيد . وقبلها كلها هبل قد أزيل من الكعبة مع فرقة الأصنام التي تحيط بها .

واجتمعت هوازن وثقيف لقتال المسلمين وعبأوا أنفسهم تعبئة لم يسمع بمثلها . فأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتعبئة. وأرسل إلى صفوان فقال ﷺ : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك نلق فيه عدونا غدا .

فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟

---

[1] تأمل الفرق بين استقباله صلوات الله وسلامه عليه لعكرمة وبين استقباله لصفوان لاختلاف نية كل منهما .

فقال ﷺ : بل عارية . ومضمونة ، حتى نؤديها إليك .

فقال صفوان : ليس بهذا بأس .

فجاء بمائة درع بما يكفيها من السلاح ، ويقال أنه حملها للمسلمين أيضا.

ولما استقبل المسلون وادي حنين انحطت القبائل عليهم فجأة فتفرق المسلمون عن رسول الله ﷺ ولم يثبت سوى نفر من المهاجرين والأنصار .

فصاح كلدة بن الحنبل وهو أخو صفوان لأمه : ألا بطل السحر اليوم .

فقال صفوان : اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربُّني (يسودني) رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن .

ثم نادى منادي رسول الله ﷺ في المسلمين بالثبات والعودة للقتال ، فعادوا كأثبت ما يكون وشتتوا شمل هوازن وانهزمت ثقيف إلى الطائف تتحصن بها.

ثم جمعت مغانم حنين تحت حراسة مسعود بن عمرو الغفاري في الجعرانة وواصل المسلمون الزحف إلى الطائف ، فحاصروها ، ثم رفع رسول الله ﷺ الحصار عنها وعاد إلى الجعرانة[1] حيث قسم غنائم حنين.

وشهد صفوان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم فلا يستأثر بشيء ولا يخص أصحابه بأكثر من غيرهم بل إنه قد أعطى مسلمة الفتح أكثر مما أعطى للمهاجرين والأنصار وذلك تأليفا لقلوب مسلمة الفتح فكان يعطي الواحد منهم مائة من الإبل ؛ رأى صفوان أمراً لم تَجْرِ به عادة العرب ذلك أن التقاليد العربية تعطي للأمير حقوقا يتميز بها عن غيره ، يجمعها قول الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

---

(١) موضع بين مكة والطائف على مسيرة ٤٠ كلم من مكة .

فالمـــرباع ربـــع الغنـــيمة ، والصفى : هو ما يختاره الأمير لنفسه قبل قسمة الغـــنائم ، والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل المعركة ، والفضول: ما فضل من الغنائم مما لا تصح قسمته على عدد المقاتلين . أخرج ابن سعد عـــن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما : قال : شهد صفوان بن أمية حنيـــنا مع النبي ﷺ وصفوان كافر. ثم رجع إلى الجعرانة ، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان ، جعل صفوان ينظر إلى شعب ملـــيء نعما وشاة ورعاء ، فأدام النظر إليه فقال له ﷺ : يا أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه .

واستقر في قلب صفوان أن هذا العطاء لا يكون من رجل مهما كان كريما ، بـــل هـــو عطاء لا تطيقه إلا النبوة وفي ذلك يقول (أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي) .

وأدى رســـول الله ﷺ إلى صفوان أمانته وأعطاه حتى رضي : وأخذ صفوان يشـــهد صفات النبوة عن كثب، إن قريشا كانت تقدس القوة ، وقد رأى بعينه كـــيف بـــدد المهاجرون والأنصار شمل هوازن وثقيف ، بالرغم من انهزام مســـلمة الفتح .. وهاهو رسول الله ﷺ مع قدرته عليه وتمكنه منه يترفق به ويعطيه حتى يرضيه ويرد إليه أمانته ، وله الحق كل الحق لو صادر أمواله بل وحياته .

روى مســـلم والترمذي من طريق سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال (والله لقد أعطاني النبي ﷺ وأنه لأبغض الناس إلي فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي) ولم يَحْتجْ صفوان إلى مهلة ، فقد كان النور المحمدي أسرع إليه من نهايتها .

وأراد صفوان أن يحظى بشرف الهجرة . فغادر مكة إلى المدينة ونزل على العـــباس بن عبدالمطلب . فاستدعاه رسول الله ﷺ ، فسأله على من نزلت ؟ فأجاب صفوان : على العباس . فقال ﷺ " ذلك أبر قريش بقريش ، ارجع أبا وهب فإنه لا هجرة بعد الفتح . فمن لأباطح مكة ؟ ، فرجع صفوان فأقام بمكة حتى مات بها سنة ٣٥هـــ، وله من الأولاد عبدالله وأمية ويعلي وعبدالرحمن والأخـــير أمـــه أم حبيـــب أميمة بنت أبي سفيان شقيقة السيدة أم حبيبة ، أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .

١٢ــ " ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ "

اجتمعت هوازن وثقيف إلى مالك بن عوف النضري، فخرجوا بأموالهم ونسائهم وأبنائهم لحرب رسول الله ﷺ ، ولما اعترض دريد بن الصمة على خروج الظعن والأموال ، نادى مالك بن عوف : " والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكان مالك يرى أن خروج المقاتلين في أهليهم وأموالهم أدعى للاستبسال والقتال حتى الموت .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج في اثني عشر ألفا للقائهم وأستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وقيل استعمله ﷺ بعد عودته من الطائف.

وكان عماد الجيش الإسلامي من المهاجرين وعددهم سبعمائة ، والأنصار وعددهم أربعة آلاف والباقون من القبائل التي انضمت إلى جيش الفتح قبل الفتح وبعده ويجب ألا يفوتنا أن غير المهاجرين والأنصار لم يألفوا النظام الحربي الإسلامي الذي درب رسول الله ﷺ عليه أصحابه فالذين لم يشتركوا مع المسلمين في القتال قبل الفتح كانوا يسيرون في القتال على طريقتهم ، ولم يعرفوا بعد طريقة المهاجرين والأنصار في الحرب .

وكان من الضروري السماح لأهل مكة بالخروج : وقد خرج منهم ألفان ، ونقول من الضروري لأن مكة قد فتحت حديثا ، وهذا الإجراء لازم لتأمينها ، بل إن استعارة مائة درع بأسلحتها من صفوان بن أمية ، وكان لم يدخل في الإسلام بعد ، له مغزى أكثر من مد المسلمين بالسلاح ، فهو إجراء ضروري لتجريد أهل مكة من السلاح تأمينا لها .

فكانـــت الهـــزيمة في بداية المعركة لابد منها ، حتى إذا ما انفرد المهاجرون والأنصار في الميدان تم النصر الساحق .

استقبل المسلون وادي حنين ، وفي ليلة المعركة جمع مالك بن عوف النَّضري قواده وقال لهم ((إن محمداً لم يقاتل قوما قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قومـــا لا علـــم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السَّحَر فضعوا مواشيكم ونسائكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة منكم واكسروا أجفان سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف ، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الحملة لمن حمل أولا ، وكمنوا للمسلمين في شعاب الوادي وأحنائه ومضايقه)).

وفـــي عماية[1] الصبح انحطت كتائب العدو على المسلمين فانفضوا لا يلوي أحـــد على أحد . وثبت رسول الله ﷺ في نفر من الصحب ، وهو يكر على العـــدو راكبا بغلة إعلانا للمسلمين لو تذكروا بعدم الانهزام عنه وكان رسول الله ﷺ يعلن عن نفسه ويقول ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب)) وأمر مـــناديه أن يـــنادي الأنصـــار وأصحاب الشجرة : يذكرهم ببيعة الرضوان . والأنصـــار كمـــا مـــر بـــنا هـــم الأكثر عددا فإذا ما عادوا عاد المهاجرون المنهزمون . ولم يكد هؤلاء يصلهم صوت منادي رسول الله ﷺ حتى عادوا ســـراعاً ، فكان أحدهم لا ينتظر راحلته حتى يثنيها فيأخذ عدة الحرب ويلقي بنفســـه مـــن فوقها ويرجع ركضا ، ويؤم الصوت ، حتى تكونت نواة جيش النصر ولم يلبث المسلمون أن تحولوا إلى الهجوم وأحرزوا نصرا ساحقا ، إذ بلـــغ عدد الأسرى ستة آلاف كما غنموا أموال هوازن وثقيف ، وهرب مالك بن عوف فيما معه ، وتحصنت ثقيف بالطائف .

---

[1] أي قبل الفجر .

ولـــم يقسم رسول الله ﷺ الغنائم لعل المنكسرين يسلموا فيرد عليهم الأسرى فأخَّـــر توزيعها حتى يرجع من الطائف ليعطيهم ﷺ المهلة الكافية للرجوع ــ فـــترك ﷺ الأســـرى والأموال في الجعرانة تحت حراسة مسعود بن عمرو الغفـــاري ، واتجه إلى الطائف فحاصرها حوالي العشرين يوما ــ ولم هناك ثمـــة داع للإقامة عليها حتى فَتْحِها ، بل إن الإقامة لهذا الغرض قد تطول ، وفـــي هـــذا ما فيه من الخطر على المسلمين في باقي بلاد العرب ، وقد تم المقصود من الحصار وهو إرهاب أهل الطائف حتى لا يحدث الثقفيون أنفسهم أو من لم يسلم بعد من العرب بأن المسلمين قد رجعوا عن تتبعهم خوفا منهم فيتجمعوا للقتال مرة أخرى ، ثم إن انتشار الإسلام بين القبائل المحيطة بثقيف، وتطهير بلاد العرب من الأصنام ، مما يجعل تسليم ثقيف ودخولها في الإسلام أمرا مقضيا ، كل هذا كان من بين دواعي رفع الحصار عن الطائف.

ولما انصرف رسول الله ﷺ عن ثقيف قال له رجل من أصحابه « يا رسول الله ادع عليهم فقال ﷺ " الله اهد ثقيفاً وأت بهم " » .

وقد كان ، إذ أرسلوا وفدهم فيما بعد إلى المدينة وأسلموا جميعا.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، جاءه وفد هوازن وكانت عدته أربعة عشـــر رجـــلا قـــد أســـلموا وأعلنوا إسلام من وراءهم من قومهم ــ فقالوا ((يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك ، فَامْنُـــنْ علينا مَنَّ الله عليك ، وقام خطيبهم أبو صرد زهير بن صرد من بني صـــعد (وإلـــيهم تنتمي مرضعة رسول الله ﷺ السيدة حليمة بنت أبي ذؤيب عـــبدالله بن الحارث وزوجها الحارث بن عبدالعزى) فقال : يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك وإن أبعدهن قريب منك حضنك في حجرهن ، وأرضعنك بثديهن وتوركنك على أوراكهن وأنت خير المكفولين .

فقـــال لهـــم صلوات الله وسلامه عليه ((معي من ترون وأحب الحديث إليّ أصـــدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال وقد كنت استأنيتُ[1] بكم)) يشير ﷺ إلى أنه أخَّر القِسْمة ليحضروا فأبطأوا فقالوا : " يا رسول الله، خيرتـــنا بيـــن أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا ." فقـــام ﷺ فـــي الـــناس فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم قال ((أما بعد ، إخوانكـــم قد جاءونا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل)) فقال الناس " قد طبنا بذلك يا رسول الله " فقـــال ﷺ ((إنَّـــا لا ندري من أذِنَ منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم)) .

فـــرجع الناس فكلموا عرفاءهم في ذلك ثم عادوا . ولما صلى رسول الله ﷺ الظهـــر قـــام وفد هوازن فتكلموا فيما جاءوا لأجله ، فأعطاهم ﷺ ما كان له ولبني عبدالمطلب . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقال الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ــ وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ــ فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال عباس بن مرداس " وهَنْتموني[2] " وما زال رسول الله ﷺ حتى رضي المعارضون وردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

فتدبر رعاك الله تعالى كيف عامل سيد العالمين ﷺ هؤلاء الذين بايعوا بعضهم لقتاله حتى الموت. وزاد ﷺ بتوجيهه أصحابه ليفعلوا مثلما فعل .

---

[1] أخـــرت القســـمة لأجلكم . هذه من معجزاته ﷺ فما أخرها إلا لعلمه بإذنه تعالى أنهم سيأتون بإذنه تعالى .

[2] تخليتم عني .

١٣ــ "ما إن رأيت ولا سمعت بمثله "

لمـــا أراد وفد هوازن الانصراف : قال لهم رسول الله ﷺ ((أخبروا مالكا أنه إن أتانـــي مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيتهم مائة من الإبل)) فتأمل بـــربك شدة حرصه ﷺ على إسلام من عبأ القبائل بالأمس لقتاله : فهو يعده بالصـــفح ورد الأهـــل والمال بل ويعطيه ما يرضيه لو آمن وأنقذ نفسه من الشرك بالله تعالى .

وأخبر الوفد مالك بن عوف النضري بما قاله ﷺ ، فدخل الإسلام في قلبه لما رآه مـــن انفراده ﷺ بالكمالات الخلقية التي لا يطيق مثلها بشر ، ولكنه خشي أن تعلـــم ثقيف بالأمر فتحبسه عن الرحيل ، فأعد عدته للهرب وجهز راحلة تنـــتظره خـــارج الطـــائف ، ولما تم ذلك خرج ليلا على فرسه إلى موضع الراحلة، ولحق برسول الله ﷺ فأنجز ما وعده وفي ذلك يقول :

مـــا إن رأيـــت ولا سمعت بمثله ... فـــي الـــناس كلهـــم بمـــثل محمـــد

أوفـــى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومـــتى تشـــأ يخـــبرك عمـــا في غد

وإذا الكتيـــبة عـــردت أنـــيابها[١] ... بالســـمهري وضـــرب كـــل مهند[٢]

فكأنـــه ليـــث علـــى أشـــباله ... وسط الهباءة[٣] خادر[٤] في مرصد[٥]

---

[٢] الرمح الصلب .

[١] عرضت أنياب الإبل إذا اشتدت : يريد إذا استعرت الحرب واشتدت .

[٣] أرض لغطفان أسدها ضاربة .

[٤] مقيم في عرينه .

[٥] مترصد ومتهيئ للوثوب ، والليث أشد ما يكون بأسا وسط أشباله .

واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه من ثمالة وسلمة وفهم ، فكان يقـاتل بهـم ثقـيفا ، بعد أن كان يقاتل المسلمين ، فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغـار عليه حتى ضيق عليهم ، وفي ذلك يقول أبو محجن مالك بن حبيب ابن عمرو الثقفي :

هابـت الأعـداء جانبـنا ثـم تغـزونا بـنو سـلمة

وأتانـا مـالك بهـم ناقضـا للعهـد والحـرمة

وأتونـا فـي منازلـنا ولقـد كـنا أولـي نقمـة